روح

- ونحن حتما عائدون لنا -

رواية

أحمد إبراهيم فكري بركات

دار بيوند للنشر والتوزيع
٤ ش كمال حسين متفرع من ومبي الهرم
٠١٠٩٦٦٩٠٠٠٠٧
Beyond.dbh@gmail.com
جميع الأراء الواردة في هذا الكتاب تعبر عن رأي كاتبها .ولا تعبر بالضرورة عن رأي دار النشر

الكتاب: روح

المؤلف: أحمد إبراهيم فكري بركات

الطبعة: الأولى

تصنيف الكتاب: رواية

تصميم الغلاف: محمد مجاهد

التدقيق اللغوي: أحمد محمد عبد الستار

الإخراج الداخلي: صبرينة غلمي

رقم **الإيداع:** ٢٠١٨ / ٢٢٦٤٠

الترقيم الدولي: ٧-٥٤-٦٦٤٥-٩٧٧-٩٧٨

دار (بيوند) للنشر والتوزيع

رئيس مجلس الإدارة
محمد عز الدين

المدير العام
صبرينة غلمي

مدير التنفيد
جلال عز الدين

إهداء

إلى روحي الكامنة في جسد لم يعيرها الانتباه أبدًا.

وإلى روح حالمة لم ترضَ بالبداية ولا بالأقل.

وإلى الاستمرار.

ولكل من أحيي بي نفسي.

ولروح تركتنا دون أن تخبرنا أنها بيننا.

ولكل من تركنا و انتهت حياته.

لكل من نشتاق لهم.

ولنفسنا حينما ترحل.

استهلال

كنت طفلًا:

برغم أننا كنا ساذجين نحمل عقولا أشبه بحبات الفاصولياء وأصغر من حبات الفستق إلا أننا كنا نحمل في أدمغتنا عقلا أشبه بكون دون حدود تخيلنا، وأخذنا نتوهم بمرور القمر جانبنا ليلا يسير بالطرقات، ويلاحقنا إلى جانب ظلنا الأسود، وتلك الأفكار المتوارثة الساذجة الطفولية، وبين كل هذا كنت أنا أقنعني الليل أن القمر يراقبني ويسير معي، وكان ظِلّي يسابقني في طرقاتي فتخيلت أنَّه أنا حينما أغدو كبيرا نظرا لطول قامته وفتول عضلاته، إلا أنني كبرت دون ذاك كله.

وبرغم كل تلك الأوهام التي لاحقت عقولنا الصغيرة، فنال عقلي حينما كَبِر الحظ الأوفر، فكنت أتخيل أنني أطير فيما قبل، فيومًا نظرت إلى ذلك الطير الذي ينطلق دون مانع ليهبط فجأة وبسرعة الفهد ينطلق ثانية لأعلى، أحسست أنني أطير أو أنني تذكرت أنني كنت أطير فيما قبل، ووقت أن يختار جسدي أن ينال قِسطًا من الراحة فأنام أحسست أنني أطير فوق وأهبِطُ كتلك الريشة، هنا أيقنت فعلا أنني كنتُ أطير يومًا ما.

فعلمت:

أنني أطير في طفولتي، وأنَّ جسدي الممتلئ الآن لم يكن كله هنا من قبل، أو أنني كنت طيرًا فيما قبل حقا، فلجانب كون القمر يلاحقني والظل ينير ظلمتي وتخيلي إلا أن عقلي بدأ يتذكر ما كنت أقتنع به قديمًا أو أنني عايشته فعلًا.

وتذكرت:

يومًا كنت بطلًا لفيلمٍ شاهدته من قبل أو إنه لم يُعرض أبدًا، أو أنني أتوهم، تذكرتُ أنني كنت أُحارب في غواصةٍ وبابها فوقي، أتذكر ملامح وجهي الطفولي وتلك الأحداث الكرتونية كأنني رسمتُ على يد فنان كركاتير ساخر، أو أنني كنت هناك بالفعل.

وبالفعل لم يكن هناك أي من تلك الأفلام تظهر ما كنت عليه!

وتوهم العقل أكثر:

دائمًا كنت أسمع عن نظرية فلان أو معلومة غريبة عن فكرة الخلود أو أننا موجودين في حياة أخرى، وتوارثت النظريات وتوالت الأقاويل، حتى إنني كنت أضع نظرياتي في عمر العاشرة فيما فوق وتذكري الآن أنني تخيلت أننا مبعوثون في قوالب أخرى بعد الموت، كنت صغيرًا لا يتعدى

عمري العاشرة وأنا أتخيل نفسي بعد موتي في جسد فتاة وأن تلك الفتاة في فصلي ستصبح بعد موتها ولدًا.

ووضعت نظريتي وتركت سؤالا يحير عقلي الصغير.

هل سنتذكر ما كنا عليه؟

والآن:

أنا هنا، عندما أقف على شرفة عالية أجد مَنْ يقنعني بالقفز لِلأعلى وإلى الجانب الآخر، أشعر بأنني أطير أو أن داخلي طيرا سجينا، وكلما راودتني فكرة لروايةِ أو أتخيل قصةٍ، أشعر أنني كنت بها يوما ما، ودائمًا يراودني القاتل بداخلي أن أمسك سكينًا وأقتل شخصا ما، أو أنني أتخيل أنني قتلت من قبل كأن بداخلي مجرمًا سجينا، وكلما قرأت عن فكرة خلود الإنسان أتذكر كَوْني لم أجب على سؤالي بعد، هل سنتذكر ما كنا عليه من قبل؟

وعلمت أنَّها

روح.

فنحن حتما عائدون لنا.

أحمد إبراهيم فكري بركات.

(١)

كل تلك الدنيا الزائفة

ينقصها شخص رحل عَنَّا دون أن يُخبرنا أنَّه لن يأتي ثانية.

(رحمك الله يا أبي)

١٥ / ٩ / ٢٠١٧

ككل يوم يرفض الانتهاء، وكل ليلة تذكرني أن هناك شيئا مفقود، شيئا لا أتذكره أو أنه لم يحدث، كل يوم ينتابني شعور الموت والحياة، أتذكر طفولتي وكل وقت مر، كأن كل يوم مر صنع من أجلي ولنفسي.

إنه اللغز الخامس والمفتاح الأخير، بدأت تلك الأيام الجديدة بصندوق أسود أحمل في سيارتي مفتاحا له، والآن أنا في سيارتي أحمل مفتاحا آخرا كُتب عليه الخامس.

أوراق كثيرة وشتات أكثر وتساؤلات لا تخرج وصداع الرأس المميت، أمسكت مسدسي واتجهت إلى عنوان ترك مع المفتاح، لا أعبث مع نفسي بالتأكيد، ولكنه يعبث مع، شخص يعلم عني كل شيء، ولا أعلم عن نفسي أي شيء،

اعذرني على بدايتي تلك فأنا أصعد الآن على تلك السلالم بعد أن أخبرني حارِس العقار بأنَّ المصعد مُعَطَّل، انتظر ها هو المصعد بجواري وأنا ألهث على تلك السلالم بجسدي الممتلئ، لقد كذب ذلك الرجل عليَّ.

وصلت أخيرًا إلى ذلك الباب دعني ألقي نظرة إلى أسفل، لم يكن بالارتفاع الشَاهِق الذي يثير كل تلك المسام من العرق التي فتحت فجأة في جسدي، لعله وزني الزائد مرة ثانية يخونني، أخرجت من جيبي ذلك الظرف الأبيض وما به من مفتاح، تصبَّب العرق ووقع على ذلك الظرف، فأخذت سريعًا مفتاح الشقة بعد أن أدرت الظرف لأقرأ من جديد كلمة (الخامس)، ترك فضولي كل ذلك وبدأت في فتح الباب رويدًا رويدًا حتى فُتِح، دخلت فأجد ذلك الظلام، وأتحسس موضع يدي على الحائط يسارًا ويمينًا فلا أجِد تِلك المفاتيح الموضوعة تضيء شيئا فقط صوتها بالتغير من الوضع المغلق للمضي ولا شيء يحدث، فقط الظلام يبقى ظلاما والنور لا يأتي.

أخرجت هاتفي من جيبي الآخر وأضأت كشافه وبدأت الدنيا تتفتح، فلا أثاث أتخبط به في الظلام ولا أشياء تسقط بعد مروري كأنني أسير في فناء لا يحوي شيئا باستثناء بعض المتطلبات، من كرسي أمام طاولة خشبية وَضَع عليها الكثير من تلك الفوضى العارمة، وسرير في غرفةٍ من غرفتين إحداهما مغلقة، لعله ليس بسرير إنَّما تِلك المرتبة التي وُضِعَت على الأرض لتتسخ مرتان مَرَّة من تلك الأرض التي يغرقها التراب كما المطر، ومَرَّة أخرى من نومته عليها.

رجعت مَرَّة أخرى إلى تلك الطاولة لأجد تلك الأباجورة فحاولت إضاءتها بعدما تحسَّستُ موضع بطاريتها فأنارت بتشتت في بداية الأمر فتغلق ثم تنير حتى ثبتت، حاولت أن أرتب أي شيء من تلك الفوضى فنزعت عن شيء صلب تلك الأقمشة وما بها من تراب، انتابتني حساسية الصدر، كأنني قمت بإشعال أضعاف ما أشربه في اليوم من سجائر، عدت ثانية إلى تلك الصلبة بنور هاتفي لأجدها تلك الآلة الكاتبة، تلك الآلة التي انقرض اسخدامها منذ زمنٍ طويل، أتذكرها جيدًا فهناك واحدة في بيت جدي القديم، قديمًا كنت ألهو عليها حسبتها يومًا مِنْ الأيام آلة موسيقية لَمَا كان جدي مولعًا بذلك الفن، ولكنني كبرت فعلمت إنَّها للكتابة، ولكن لما يحتاج لها؟ لما يحتفظ "عاصي" بها؟

أدرتُ يدي لأبحث في تلك الكومة من الأوراق حيث وجدت أول تلك الكومة ورقة كُتِبَ عليها اسم "لمياء"، وصورة لفتاة في الثلاثين من عمرها كانت مطوية من المنتصف عَلَى شخص آخَر يقف بجوار تلك المرأة فقربت ذلك الضوء على وجهه لأجده تالفا.

أمسك تلك الحِزمة من الورق، حِزْمة بعنوانِ"لمياء"، تحتها عنوان فرعي اسمه (المرأة التي ثارت والرجل الذي خان)، تزامن كل شيء مع جلوسي

وإمساكي بتلك الأوراق، الليل المقبل والسواد المنير وسقوط بعض الأوراق بجانبي تهرول، تيقنت من أنها فارغة فتركتها تهرول بعيدا، أمسكت أوراقه بخط آلته القديمة وتحسست حبرها الأسود القاتم، وبدأت في قراءتها أو أنني أعيشها.

(٢)

وَمَنْ أحَبَّ ضَعُفَ.

***

"لمياء"

(المرأة التي ثارت، والرجل الذي خان)

"تلك المرايا وتلك المرأة وتلك النظرة الواقعة على جمالهن تارة أو غبائهن مَرَّات أو دموعهن كثيرًا، تحكي لنا الكثير أو تحكي لها الظالم من حقبتها والقاسي في حياتها، لعل مسيرها التكسير تخرج به كل ما كان وكل ما جري، تُخرج كل ما قسى من حياتها.

المرايا سِرّ قوة المرأة، وسِرّ قوتها لا يجب أن يراها بشعة لا ترى أو لا تتذوق من إحداهن، سِرّ قوتها لا يجب أن يحتقرها فيراها أحيانا بائسة وأحيانًا أخرى فرحة بطعم الصنعة على جبهتها، ولكنها تبقى سر قوتها سر سعادتها، وإذا رأتها يوما بشِعَة فمسيرها التكسير، حتى لا تحترق من الداخل كما الشهاب الغائر على شكله.

أمَّا المرأة فهي جزء لا يتجزأ من طعمها في الحياة، أو بالأخص حياة ذائقها، فإذا تمتع بها غضبت وإن تركها كما الصيد الميت ثارت، ولكن ماذا ستفعل إن ذاقها الرجل بمهانة؟ أو بالأصح ماذا سيكون ردها عَلَى عَدَم وجودها؟ أو عدم عِلْمَهَا بذاتها الضائعة.

****

كل شيء لا يزال في مجال مبهم كفضاء قاتم اللون لا نعلم منه شيء، تحركت الورقات مرة أخرى فأبصرت ذلك الفأر الصغير يهرب من مضجعه خوفا، يهرول بعيدا فالتصقت بوجهه إحدى الورقات الفارغة، فوقفت فزعا ثم انتابتني الطمأنينة مرة أخرى، وضعت أول تلك الأوراق على قطعة من مكتبة فارغة، وأكملت رحلتي، وأنا أقرأ دون توقف.

****

وَقَفتْ أمامها تلك المرأة تتحسس دموعها الساقطة، ليست من شيمها تلك الدموع الغزيرة بعد كل ليلة من تلك المعاناة، ولكنها الأولى من نوعها، أن تقف كما القاتل أو المقتولة لم تعِ من هي، ولم تعِ لِمَ تبكِ، أتبكي على ذلك الرجل الجالس خلف ذلك الباب منتش تائه بعد كل ليلة من الكرامة المقتولة؟ أتبكي على الفيصل الذي بين دموعها وموتها وهو الباب الذي يفصلها عن حزنها ووحدتها؟

تعلم كل العلم ما سيحدث، بكاؤه المستمر بعد عشرات الدقائق طالبا السماح، كان في أول الأمر لصالحه ذلك الكسر والذل فكانت ترد عليه وتساعده على التناسي، ولكنه ككل شيء، تأبى أن تستمر في ذلك الكلام فتصمت، ثم تأبى أن تَصْمُت فتبكي، وهنا تأبى أن يرى دموعها فتبكي وحيدة في ذلك الحمام أمام تلك المرآة، المرآة التي امتلأت من الذكريات

الحزينة، فقط الحزينة، ذكريات أولى بالنسيان، أولى بأن تُتْرَك، ولكنها لا تتلاشى ولا تنسى.

نظرت إلى ذلك الباب خلفها كأنها تنظر له ممسكًا بتلك السيجارة في يده واستلقائه على ظهره عاري الصدر، تراه يماسك دموعه التي لم تجد يومًا ما يردعها ولا كبرياؤه ولا ظلمه لنفسه، تراه يرسم في الفضاء دوائر كبيرة بدخانِ سيجارته، تتوسط كل دائرة ذكرى لها معه، ذِكْرى أول لقاء، وتتصاعد الدائرة التالية لتعرض عن أول دموع، ثم التالية لتعرض ذلك المسلسل اللامنتهي من قذارته، وهكذا لتستمر وتنتهي تلك السيجارة، ثُمَّ دَمْعَة بل دموع ثم سيجارة أخرى، ويتتابعها شلال الدموع.

ولمَ يبكِي؟

ولمَ يبكِي؟ لمَ كل تلك الدموع؟ كل ما تعلَمه أنّها لا تستطع أن تتناسى وتغفَل عَنْ كل ذلك، لم تعد تقدر عَلَى الصمود، لم تقدر في بداية الأمر على دموعه فكانت تواسيه، وتوالت الليالي والأيام واستنكرت أساليبه، استنكرت كل هذا، ولم تعد تقدر على الاستمرار في المساومةِ على كرامتها أو عَلَى الأمر برمته.

التفتتْ للأمام مجددًا لتُكمِلَ مسيرة ذكرياتها، كما الماراثون المنطلق من بداية اللابداية إلى نهاية اللانهاية، التفتتْ لتقرأ أيامها وتقرأ حُزنَها، تراها تلك الطفلة تَبْكِي وتفرح وتراها أمام تلك المرآة تبتسم ابتسامتها المكسورة المُشْتاقة لذلك الزَّمن وتلك الأيام، تشتاق لأيام طفولتها تتذكرها كأنما لم يمر عليها شيء، لَمْ يَمُر عليها قرابة الثلاثون سنة.

ثلاثون عاما من اللاشيء.

طفلةٌ في المرآة تكبر ويكبر كل شيء معها، وسيدة في ريعان حزنها تبكي أمامها وتتحول الابتسامة إلى حُزنٍ كلما كبرت الفتاة، كلما زاد همها وزادت نظرات مجتمعها المريض لها، تبكي تلك الفتاة أول بكائها في مسيرتها داخل تلك المرآة، وتصمت عن البكاء، والمشاهدة الحزينة، مشاهدة لكل تلك الأحداث.

أرادت أن تهرب من كل تلك المشاهد إلى عالم أنقى، عالم لا يوجد به "آدم" زوجها ولا يوجد به ضعفه ولا ضعفها المكتسب، أرادت أن تهرب وإلى أين ستهرب؟ إلى اللامكان؟ أم إلى حياة أخرى؟ أم إلى زائفة أخرى من حقبتها؟ حقبتها الحزينة، وعصرها المريض بالحب الزائف.

فكت عن شعرها تلك العقدة التي تمسك قمة رأسها، فتطلق الجزء الأطول حرا طليقا، فأصبح كالهائج الناعم، لا يكسره شاطئ ولا تردعه

صلابة الدنيا، أمسكت بأطرافه صاعدة إلى أعلى حتى وجهها الباكي، وأخذته إلى الوراء في حركة تصفها السينما بالحزن، ولها مفهومها الآخر لديها، وهو الانتصار.

مسحت عن خدها بقايا الدموع وكل الحزن، تحولت إلى وجه صلب لا يقتنع إلَّا بقرار واحد، أمسكت بذلك المقص فوق ذلك الدرج، وفي سلاسة الحزن وصعوبة الحياة أو الموت قصت ذلك الشعر الهائج ولم تبكِ، ولمَ لا تبكي؟ آه، بالأمر المهين أن تتخلص مما لا يقبله أغلب النساء أو كلهم.

ولكنني لم أعلم يوما، لمَ الشعر؟ لم غضب المرأة يتحول إلى قَصّ شعرها تارة بعد معاناة البكاء، أهو انتقام من نفسها؟ وإن كان؟ ولمَ يكن؟ ولكنني علمت أن احتواءنا للمكسب يبدأ بالتخلي عما يسعدنا، أو بالأصح على ما نراه نحن الأهم وله كل الاهتمام، فكانت هي كالمنتصر في حالة حرب، حرب لا تنتهي ولكنها ستنتهي، أوقفت دموع خديها بذلك الشهيق الانتصاري، وخلعت عن وجهها قناع الانكسار، ووضعت على شفتيها الأمر بالإغلاق، أن تلامس إحداهما الأخرى في سلامٍ تام.

***

هنا انتهت بعض من ورقاته البيضاء ملطخة بتلك القصة أو هذا ما كنت أظنه، بين حكايتها الغامضة وجدت بعض أوراقه الفارغة تتغللها صف من الشعر الأسود، شعر قص من سيدة في ريعان شبابها شعر أعلنت به صاحبته أنها المنتصر، قصات من شعرها، شعر لمياء يقف فاصلا بين حكايتها.

***

فهي الآن مازالت واقفة، أرى عزة نفسها التي تكبر ولا يردعها أحد، حتى لا يردعها ذلك الطرق على الباب من قِبَلِ "آدم"، آدم المسكين الذي بدأ بالبكاء ولم ينس كلماته المزعجة عن الاعتذار، تسمع لهيب اعتذاره الغارق في دموع فاحشته، ترى إحساسه بالندم على خيانته، تراه الآن وهو في أحضان أخرى، تتخيل ذلك المنظر بعد أن أغلقت على عيونها الحلم والتشتت.

فترى فتاة من ظهرها مُلقاة على جسدِ زوجها العاري، زوجها "آدم"، وهو منتش في عز انتشائه وتلذذه بتلك الغفوة كما يطلق عليها كل مرة، فتأخذ عدسة عيونها الحالمة في الاقتراب أكثر وأكثر، حتى ترى وجه تلك المرأة، ولا تصدم ولا تبكي تمسك على عيونها تلك الدموع وتأبى أن تنزل.

هكذا تخيلت زوجها وهو في أحضان الخيانة فلم ترَ نفسها تلك، ولم ترَ زوجها يحتضنها ولكنها واحدة أخرى، كما العادة وكما كان، فزاد الطرق على الباب وزادت الاعتذارات منه التي لا تشهد غيرها، كل ليلة يأتي ويخبرها أنه خانها وهو يبكي، فزادت أكثر وأكثر، كأنها تتبادل هي ودقات قلبها ذلك الحزن، وبهدوء، بعد أن ارتاح قلبها قليلا وضعت يداها على صدرها تتحسس نبضه الذي قل، خوفا من الموت؟ لا أعلم، تقدمت إلى الباب وفتحته بهدوء، حتى وقعت الأعين في الأعين.

وقعت عيونه الحمراء الباكية، الغارقة في ذلك البحر، وشفتاه ذات الوضع الاعتذاري، على عيونها الجافة، كأنها صحراء أصابها المطر فجأة ثم جفت حتى آبارها، ووقعت عيونه على شعرها التالف والساقط خلفها، فزاد احمرار أدمعه وزادت شفتاه في الاعتذار وزاد كل شيء ريبة من نظرتها.

كانت تمسك بيديها ذلك المقص الذي لم يقع منذ ذلك الوقت، فزادت غيظا بالضغط عليه، حتى بعد أن وقع في حضنها باكيا ومعتذرا آلاف المرات.

فبدأ شريط يمر يحوي كل تلك الدموع، شريط يحوي أوجاعها، شريط بدايته النكران وأنها لا تستحق، كل هذا وذاك فكل تلك الآلام.

ترى عناوين مفصلة عنها، أو عن حياته معه أو عن سيرتها المريرة، فقط ترى نفسها تَكتب كل تلك العناوين بدموعه وتارة بدموعها.

آخِر ما تتذكره، آخِر ما تراه في تلك الذكريات، آخر ما تشهده في مخيلتها الناسية، هي تلك النظرة، ليست نظرتها، بل نظرته وجحوظ عيونه التي توقفت عن نزيفها للدموع وزادت في احمرارها واتساعها، بل زاد أيضا نظرته لها.

فكانت النظرة تطول وشفتاه لم تعد تنطق بأسف، إنما فتح فمه كأنه يعلن التضامن مع جحوظ عيونه فتزداد، ثم سقطت تلك النظرة لأسفل.

هنا توقفت ذاكرتها.

توقفت عند اللاشيء.

***

وهنا انتهى كل شيء لم يعد ورقا أبيضا يفصل قصتها إلى أجزاء، فقط انتهت.

وابيضت الأوراق وسكنت الدنيا من حولي وزاد عقلي تخيلا وقلبي يخفق بقلق وكأنني وضعت نفسي في دوامة لا أعلم عنها شيئا، لا يكفيه كل ما مر من لغزه الأول حتى الأخير أو أنه ليس إلا باب لآخر ولحياة أخرى.

عدت مرة أخرى من العالم الذي أرسلني إليه "عاصي" بتلك القصة عن "لمياء" وخيانة زوجها، أفقت من ذلك العالم لمكاني في أول الأمر، فمرت نصف ساعة منذ أن دَخلتُ إلى تلك الغرفة أبحث عن لغزه الخامس والأخير، ولكنني بدأت أقرأ وهنا توقف حين ابيضَّت الأوراق وأعلنت انتهاء قصتها عند هذا الحد، فزادني الفضول حيرة.

فانتهيت من "لمياء" -المرأة التي ثارت- وقرأت عن "آدم" -الرجل الذي خان- وانتهت بطارية هاتفي فلم يصمد النور لحظات أخرى فأعلن استقلاله كما أعلنت "لمياء" استقلالها من زوجها فقصت ذلك الشعر الهائج، انتصرت "لمياء" على نفسها، فهل صمد الانتصار أم انتصرت على زوجها؟

لم أعلم.

قرأت آخِر سطور مرارًا لأفهم ما حدث.

هل قتلت لمياء نفسها فتعلن أنها ضعيفة؟

أم وضعت ذلك المقص في قلب زوجها لتُنْهي بذلك وجعها؟ وتعلن إنها الأقوى.

وهنا جاء السؤال الأكثر شمولا: هل ترى الأنثي إنها الأضعف دائما فتسقط دما بعد شلالات الدموع على حبيب لا يقدرها؟ أم إنَّها ترى نفسها الأقوى لتصمد وتنتقم! إن كانت قوية بما يكفي لمَ انتظرت معه كل تلك النوبات؟ لمَ انتظرت "لمياء" "آدم" كل ليلة من الكرامة المقتولة لترى حبيب حياتها ونور ظلماتها، يأتي في الليل دامع العيون، أحمر الصدغين يبكي بدلا من الدموع دموعا أيضا ولكنها دموع الندم، يحدثها ويحكي لها تجربة أخرى من تجاربه، فيعشق جسدا آخَرا، وينام مع أخرى أجمل منها، فهل ترى "لمياء" إنها أقبح منهم حتى إنها تصمد ولا تشكي؟ أم إنها تحبه؟ فهل كان لها من الحب نصيب أضعف؟

لا أعلم.

كل ما أعرفه أنها قتلته بدم غريزة الأنثى ضد كرامتها المهدورة ففازت على نفسها حين قصت شعرها وتركته يهوي دون رجعة، أو إنها قتلت نفسها لتعلن أن تدريبها على الانتصار لم يعطِ كفاءته الصحيحة وأنَّها لا تقدر على الانتصار، لا تقدر على قتل حبيبها الخائن، فقط يبقى في أحضان غيرها وهي تتألم دون أي معروف منه.

فكنت حائرا.

ولكنني لم أكن ذلك الرجل الذي ترك العالم ليبحث عن لغز وحل لكل ما يدور في عقله، فبالفعل كنت أعلم ما فعلت، كنت أعلم كل شيء، تلك المَرَّة التي وصلت بقدمي للمشفى، تلك المرة التي نطقت باسمها ولم أكن أعلمها، الآن عرفت من هي "لمياء" الذي نطق به عقلي جهرا.

كنت أعلم قصتها والآن اكتملت الأجزاء وعلمت كل ما نقص فزاد وزاد حتى انقضى الأمر.

وضعفت لمياء ولم تكن بالأقوى.

فتركت رزمة الورق تلك وأصبحت أبحث عن الجزء الآخر لقصة "لمياء" لعلني أشهد مقتلها أو انتقامها أو دافعها لكل هذا وذاك فلم تصمد الأبجورة ولم تعد تعمل فأعطت ثلاث محاولات فاشلة ثم سكنت، بدأت أطلق يدي فتبحث في ظلام دامس عن أي شي ينير دربي وخطوات التائه، فلمست يدي درج ذلك المكتب وفتحته لأبحث في اشتياق عن أي شيء، ووجدت بعض الشموع، تذكرت أنني أحمل بعض أعواد الثقاب، ولعنت ذكائي بعدم استخدامي إياهم من قبل، وأشعلت تلك الشموع، وأطلقت لهيبها في الهواء أبحث عن مكان لوضعها ولوهلة وجدت ذلك الطبق الذي أغرقته بقايا الشموع السابقة، فعلمت أنه مكانه المختار.

وضـعت شـموعي الملتهبـة بِعـد أن اسـقطت تلـك الشـمعة التي مـا زلـت أمسكها بيدي بقاياها الذائبة، بـدأت أبحث في بقايا الـورق لأجد أوراقا أخرى كتب بها قَصة "لمياء"، فلم أجد، بحثت أكثر حتى وجدت رزمة أخرى تحت تلك الآلة، فمسحت عنها ترابها وبدأت، فوقعت تحت عيوني تلك البداية المتوسطة.

(إنه أنا عاصي)

(٣)

فالاشتياق مرض لعين.

نظرت نظرة فزع إلى الباب المغلق كأن به شيء يناديني أو أنه يحمل النور الذي أريده، تيقنت أنني أخاف من المعرفة أو الاستمرار في لعبته، أنزلت عيني سريعا عن الباب وأمسكت أوراقا أخرى بحكاية أخرى ولكنها باسمه تلك المرة.

للحظات نسيت أنني أبحث عن حياة لمياء وبدأت أقلب في أوراق عاصي فهو ما ابتغاه من تلك الرحلة.

وأشعلت شمعة أخرى أمامي مباشرة وبدأت أقرأ من جديد حروف كُتبت عنه ومنه.

"إنه أنا عاصي"

هنا سأحكي حكايتي مع الحياة.

ولكن لحظة!

كيف لي أن أحكي عن الحياة وتلك الدنيا.

وأنا لا أعيش غير عالمي وغير حياتي.

هكذا بدأ كل شيء.

هكـذا بـدأت حيـاتي تأخـذ منعطفـا آخـرا، تأخـذ طريقـا آخـرا مبتعـدا كل البُعد عن ذلك الحزن، لعله دام واستمر في البحث عني، أيجد حلا لبعده أم هو وجوده من وجودي؟ أو هو وجوده من وجود الحياة؟

هل للحزن بيت في حياتنا أم حياتنا هي فصل في حزن حياة أخرى؟

لحظـة، فأنـا لـم أعـرفكم بنفسـي بعـد، أنـا عاصـي، هـذه ليسـت إحـدي الـصفات التي أملكها ولكنه اسمي، أتساءل ما هذا الـصوت المستفز؟! إنها صوت آلـة الكتابـة الخاصـة بي، نعـم لـم تعـد تسـتخدم منـذ زمـن، ولكنني أكتب عليها الآن.

في ليـل أشـبه بتلـك الليلـة التي تقـرأ فيهـا الآن، أو إنهـا كتلـك السـاعة التي تصبغ الشـمس بها السماء حمرة الحـزن، ينتـابني الشجن ويأخذك الخـوف والقلـق وتأخـذني أنـت بنكرانـك إلى الهاويـة، سـواد لا يعني سـوادا، فقـط لاشيء، هناك عالم لا تعلم عنه إلا اسمه هناك الحزن.

وكنـت أنـت هنـاك وكنـت أنـا هنـا كمـا أنـا دائمـا، استيقظت ذلـك اليـوم، عايشته من قبل، وقبل قبل، وقبل شهور، لعله قبل عام أو أكثر من تلك

السنين، عايشته ذلك اليوم كل يوم منذ أن انتقلت لتلك الشقة، بغبارها المعتم، ووجهها الأسود الليلي دون القمر، بضوئها الساقط كما النجوم.

فتحت عينيّ، أصيبت شفتي بالعطش فجفت، لعلني نمت كثيرًا، فأشعلت تلك الأباجورة بالجوار على ذلك المكتب، أتحسس مواضع ذلك الكوب وما به من ماء فلم أجد ما يروي عطش شفتي، فقرر عقلي النائم أن أقف لجلبِ بعض من الماء، ولكنني لم أقف ولم أشرب.

وكأنني أعاقبها، أو أنني أضرب في شخص يموت أو مات بالفعل، أشعلت تلك السيجارة الموضوعة على المكتب وعدلت من نومتي على السرير كأنني أعود إلى النوم ولكنه ليس البحر، أغرق فيه وقتما أشاء، فلم يكن البحر ولم يكن وقت النوم، أخذت تلك الأنفاس المتصاعدة، أو أخذت هي كل ما تبقى مني.

أصبحت أوشك على اللهاث، فتركت غطائي يسقط وتدلت قدمي الأولى من على سريري، رفعت رأسي إلى الأعلى تاركا يدي تجلبها في مستواها الطبيعي ثانية فزادت أوجاع ظهري، نظرت سريعًا إلى تلك النافذة المفتوحة وعدت أنظر إلى أقدامي العارية وأمسك ظهري العاري ليخفف عني أوجاعه.

وقفت أمام المرآة، طالت لحيتي، أعلم، ولن أحلقها، طال سواد شعري فتخلله بياض الشعر وزاد العمر وحيدا، فلن أحتفل بعيد مولدي الأربعون وأنا هكذا، ولن أحلق شعر وجهي لأنني هكذا، لأنني، لا أعلم ولكنني لن أُزَيّن نفسي ولن أخلع الثوب الأسود عن قلبي ولا عقلي.

فقط سأترك كل شيء على طبيعته.

سأترك الأبيض يزداد فيقل الأسود ويزداد أكثر شعر ذقني طولا فيهيج دون رادع، فلن أردعه.

أخذت ذلك الحمام الساخن وتركت كل شيء.

تركت كل ما في خيالي.

ولكنه لم يتركني.

نزلت على رأسي قطرات الماء ثم ازدادت وعلت صرخاتهم في عقلي وتخيلي، وروادني كابوسي النهاري ثانية، يقاتلني ولم أتعلم القتال يوما، يأخذ مني حقي في الحياة، يذعرني بأنني وحدي، أو بأنهم، أنهم لن يأتوا أبدًا، فيغضبني ولا أملك لنفسي إلا الألم ولا أجد لنفسي حزنًا ولا أجد أبدًا أي شيء إلا كثيرًا من الوحدة المتزايدة، وقليلًا من إحساس الوجود.

فأنزل بجسدي لأسفل حتى ألامِس الأرض المبتلة، وذلك المطر الساقط فلا يقف عن السقوط، أتمنى أن يغلق مسام عقلي ويغلق مسام تفكيري وتذكري، أراهم بين أيدي الفراق أو بين أيدي الموت كلاهما واحد، فيسلمني أحدهما إلى يدٍ لعينة، لا تطيق الأنس ولا تعرف الحب ولا تع معاني الحياة.

يسلمني لأيادي الاشتياق الأبدي.

ويقتلني كل يوم، كأنه لم يقتلني أبدا.

وكيف لعقلي أو جانب عقلي التذكري، أو لعله جانبه الحزين، أن ينسى ذلك اليوم، أن ينسى ذلك الوقت، أن ينسى ولأول مرة توقف الزمن، تذكرت حينما قالوا أنَّ الزمن لا رادع له، ولا متحكم، فكان الوقت حين ذاك كأنه أخذ الأمر بالتوقف، فتوقفت شظايا الزجاج هذه من تحركها السريع، وتوقف مقررا لذلك الشعر وما تحته من دماء من أن يسمح لها بالسقوط كما الشلال، فوقف الزمن لدقائق ووقفت الدنيا لساعات ووقف حلمي ووجودي لسنوات، وماتت ابنتي الطفلة في أحضان أمها ولم تعد، أخذهم الموت من بين يدي الوقت وهو صامت لا يتحرك، فكانت

تلك السيارة في وضعها المقلوب تأبى أن تعتدل، وظلت ضحكة ابنتي قبل حادثنا لا تتحرك.

وبقي كل شيء إلا أنا.

بقي كل شيء صامت دوني، كنت أحرك تلك العيون الباكية ولا أستطيع أن أتحرك، لا أجد مني ذلك السد الذي يحمي ما أملك، عاجز؟ نعم كنت أعجز عن أن أحمي كل ما أملك، كنت أحمل فوق كل هذا نظرات طفلتي وزوجتي الغالية، وفقدته، وفقدت كل شيء.

هنا أصبحت كما تراني الآن.

عاجزا، فقط لا أعيش، ولا أريد أن أحيى.

جريت.، جريت سريعًا كشلال ثائر، أنفاسي تتقطع وصراخ رئتي يزعجني ويلعنني مع كل نفس بسبب تلك السجائر.، وكأنني سيجارة تنتهي، سيجارة أشعلها الموت ويسحبها الاشتياق دون أي رحمة أو غفران فكنت أنا تتنفسني الحياة،تتنفس كل ما بقي مني، وكل ما تبقى من حياتي، يطير كذلك الدخان ولا يرجع.

يا ليت قدمي تتعثر وأقع، ولكنني لا أقع، أستمر في الجري.، فلا يلحق تفكيري ذكرياتي، ولا ترى دموعي خدودي لتسقط.

فقط أجري، وأترك كل ما حولي، كل ما يحدث أتركه، وإني أجري ويجري معي الريح نحو أعماق حلمي وصمودي الحزين.

كثيرا نملك الاختيار أن نُشرق كتلك الشمس الحارقة فوق رأسي وأنا أجري، جريت كثيرا وكثيرا حتى استوقفني التعب، أرهقني الحزن أميالا وأرهقني الجري ساعات قليلة فلا أنا بالمشتكي، حتى إنها أحيانا أخرى نملك بها للدنيا الاختيار أن نطفئ كالليل فلا نسمع إلا صوت داخلنا وحزننا.

حينها بدأ كل شيء.

أوقفني ذلك المتجر وواجهته القديمة.، وكل ما تحمله من تراث يأبى أن يأتي عليه الزمن ويغيره، فيفتح ذلك العجوز متجره بتلك الأنتيكات القديمة ليبيعها، ليضع في كل منزل من أصحاب الذوق شيئا يحمل تراث الماضي، .وها هي أبت أن تحذف من سجل الحاضر.

فاستوقفتني.

تلك الكاتبة، رأيتها كثيرا في تلك الأفلام القديمة، تمنيت كثيرا أن أحملها، أن أعـزف عليهـا فتصـدر ذلـك الصـوت، وكبرت فعلمـت أنهـا للكتابـة ولا تمسح منها ما كتب بعكس ما توصلوا لـه الآن فـزاد إعجابي بها أكثر، فلم يكن العـزف هـو حلمي الأوحـد، إن بقـت في خيـالي، كـدفتر يكتـب بـه مـا لا يمسـح ولا يعـدل، فقـط أكتـب، ولا يـتحكم بـي أي شـيء، ومـا دام ذلـك الصـوت يـرن منها فأنـا سأسـتمر في الكتابـة، ومـا دمت أسـتمر في الكتابة فهي ستصدر صوتها، شيئان لن يبتعدا عن بعض ابدًا.، وهو ما تمنيته.

أتـذكر حينمـا طلبـت مـن والـدي في عيـد مـيلادي العاشـر أن يجلـب لي واحـدة، فضـحك وضـحك كل مـن في الغرفـة، حتى أمـي لـم تسـتطع كـتم ضحكاتها السـاخطة، فكرهت يوم مولدي، وكرهت نظراتهم لأحلامي، فهل أدخل وأُحْضرها لنفسي بعد ذلك العمر؟ سأطلبها من بائع المتجر كطفل لـم يكبر قـط، أم سـأطلبها بصـوت رجـل أربعيني أراد سـماع صـوتها كمـا المشتاق؟

أخذتها من مكانها طفلا في ريعان شيخوخته، تؤلمني عظامي ولا تؤلمني بعد حملها، تنساني أحزاني ولا أنسى حملها، أنظر لكوني طفلا لم يكبر أبدا أو أرى طفولتي بداخلي.

استيقظت من غفلتي فتركت كل تلك الذكريات لأفرح بلعبتي المعهودة من قائمة أحلام ولا يردعني عقلي عن شرائي لها، فماذا سأكتب؟ لا أعلم، فقط أردت أن أكتب، أردت ألا أرى نفسي عاري المبادئ، أو عاري أي شيء فأرى نفسي وأرى وحدتي.

كنت أستيقظ كل يوم أنظر لها فلم أختر بعد ما سأكتبه، قررت أحيانا أن أكتب عن يوم الحادث، فسريعا أمزقها وأجد صوتا دخيلا على صوت عزيزتي الآلة، فأجد الدخيل هذا هو صوت البكاء، فأقطعها، وأكتب ثانية، ويفصلني عن الأجواء هو نفس الدخيل فيقع قلمي وأنا لا أحمل قلما، وتقف آلتي وتستمر في الكتابة ولا تحمل همي.

وضعت جسدي المتهالك فوق سريري أنظر لخردتي القديمة وأنا أمسك بمفتاح أباجورة وضعتها بجانبي، ملقى على سرير أنام على جانبي الأيمن وعيوني تكاد تخرج من موضعها أنير تلك الاباجورة وأطفئها مرة أخرى أنيرها وأطفئها، وأنا لازلت أنظر لتلك الخردة، تمنيت أن أكتب عن ابنتي، ولكنها لن تأتي، أنير وأطفئ سريعا كتلك الأيام وببطء كليل نهارها، حتى غلبني النوم، وحلمت وأنا لا أحلم.

كنت في شارع مظلم، لم أخف يومًا من ظلمة الأماكن، ولكن هنا اختلفت الأمور، فكان يصيبني الخوف من حين إلى آخر، وجدت امرأة تحمل ابنتها المريضة وتبكي بطريقة هستيرية، وأسمع صوت تفكيرها لأنظر مرة أخرى إلى فمها لأجده مغلقا تماما، علمت أنني هنا أسمع صوت تفكيرها، صدمني كلامها حين تمنت الموت لطفلتها، فتركتها غاضبا لأجد شابا وحبيبته يسبها ويأخذ العراك حد الضرب فأتركهم لأجدهم بعد ثوان أمامي على سرير تأخذهم النشوة.

فتركت كل ذلك إلى زقاق آخر لأجد ذلك الملتحي وهو يخرج من أحد المساجد ليذهب إلى مكان آخر يهوى فيه الشهوات، فأدخل بيتا أجد رائحة الدماء تهرب من ذلك الحمام، أجد تلك الفتاة ذات الشعر التالف تعاتب في سرها زوجها الذي جلس يطرق الباب عليها ويعتذر منها وهو يبكي، فلم أذهب عنهم حتى فتحت الباب وهي ممسكة بذلك المقص و يبكي أكثر ليحتضنها بعنف باكيا معتذرا، فأجد تلك النظرة منه، حيث اشتدت عيونه جحوظا، ودموعها جفت ولم تهرب دمعة منها، وهنا نظر هو إلى الأسفل، فتشاركنا النظر إلى شلال من الدماء سال على الأرض.

فهربت، هربت، أصبحت أجري كالمجنون، وأنا أرى ابنتي في أحضان تلك السيدة التي كانت تحمل ابنتها وتتمنى لها الموت، فأفزع لها لأخلصها لأجد ما يعترضني هو ذلك الشيخ الذي كان وجهه مثلي، أو كأنني أنظر لي،

لأهرب من مسكته ورائحة خمره الكريهة إلى أحضانِ تلك الزوجة ذات الشعر التالف، حين خرجت من الحمام وارتمى إليها زوجها، فأنا كنت ذلك الزوج الخائن، فكنت أيضا ذلك الشاب العشريني الذي يضاجع حبيبته بعد عراكه الذي شاهدته من قليل.

فهربت من كل هذا.

وأصبحت أتهرب من أحضان كل عالم.

حتى أفقت.

(٤)

أحيانا لا يجب أن نختار، فالحب يعطي القرار.

رفيق

لا نعلم من الدنيا إلا ما يصل لحواسنا فقط.

كانت الساعة الثانية ظهرا حين اشتد الحر على محيط القسم الذي أعمل به، كان يوما مليئا بالأتربة الساخنة والجو المشحون بالغضب والقلق ورائحة عطر أحد الضباط حيث يكمن مكتبي في إحدى الغرف بالداخل، جلست استنشق أنفاس يوم آخر غريب، ألقيت بظهري على الكرسي وتركت عنان عقلي يرتاح دون تفكير، أصاب عقلي بعض من الصداع المفاجئ، أتذكر يومها أنني أمسكت رأسي كثيرا وضغطت بكل قوتي لأرتاح من تلك الذبذبات التي أصابت رأسي وكدت أموت من كثرة الألم، عيناي أصابها السواد وكل شيء أصبح أسودا قاتما ببخار أبيض يسوده الغبار الداكن، للحظات تخيلت أنني أرى شيئا ما، أمسكت رأسي ثانية وبقوة ووضعت أصابعي على تلك العروق البارزة من رأسي، وجدت تلك الفتاة التي تجري أمامي، تجري لتنظر لي بابتسامة وينتهي بذلك الألم الشديد مرة أخرى فأرى نفس الفتاة طفلة ملقاة على الأرض أمام عيني ونزيف تلك الدماء لا يتوقف من رأسها.

أفقت من وجع رأسي وصداعي الرهيب على صوت امرأة تصرخ في نهايته صوت صافرة أصابت رأسي بالشلل لدقائق، أنزلت يدي وأخذت نفسا عميقا لعله يريحني، وضعت تلك الأقراص الكبيرة في كوب به ماء ليفور الدواء ثم ألتقطه وأخذت أشرب منه دون رجعة سريعا حتى أرتاح، واستكملت ما بقي بكل شيء كما لم يحدث شيء أبدا.

أمسيت تلك الساعات أتذكر ملامح الطفلة ولكن لم تساعدني ذاكرتي ولكنني رأيتها من قبل ولا أعلم أي شيء عنها، لم أكترث للأمر كثيرا.

انتظرت كثيرا حتى بدأت في يومي وتذكرت تلك القضايا التي سأمر عليها، هنا أمسكت تلك الملفات وبدأت أقرأ وتركت ذلك الملف لأفتح ملفا آخرا دونه ثم الآخر حتى فتحت تلك الأدراج في الأسفل ووجدت صندوقا أسود اللون به قفل صغير لم أعلم عنه شيء من قبل وكأنني لم أره من قبل أبدا.

سألت ذلك العسكري الذي يجلس في الخارج عن ذلك الصندوق قال إنه لا يعلم عنه أي خبر، فقط صندوق غريب في مكتبي الذي أحمل مفتاحه لا غيري أحد، تركته أمامي يكاد يتصبب العرق مني ولا أفهم ما أنا في صدده الآن، حاولت أن أتذكر أي مفتاح أحمله، فهربت إلى سيارتي في الخارج، وضعت قدمي بداخلها وبحثت في كل مكان عن مفتاح صغير

لصندوق أسود، فتشت في كل مكان حتى أخذت أصابعي تتحس شيئا صلبا صغيرا بين الأتربة فوجدته مفتاحا صغيرا لُصق عليه ورقة بيضاء كتب عليها الأول، تركت كل هذا وسريعا اتجهت إلى المكتب مرة أخرى، ووضعت ذلك الصغير في محله وفتحت الصندوق، بعض من الأوراق البيضاء وشريط فيديو وورقة بيضاء تختلف عن ما مر بسواد ما كتب عليها، أمسكت تلك الورق وبدأت في القراءة.

****

نحن لا نعلم ذاتنا حينما نضعف.

فقط نرى ذلك القوي المصطنع.

نتوهم أننا كبرنا أو أصابت عقلنا تلك الشجاعة الكافية لنقول اننا بخير.

لا تنس نفسك.

ولا تهرب من حقيقتك أنك كنت هنا من قبل.

كنت أنت.

ولم يكن إلا أنت.

***

أدرت الورقة لوجهها الآخر لأجد كلمة الأول مكتوبة في منتصف الورقة كتلك التي كتبت على المفتاح الصغير.

أمسكت ذلك الشريط وأنا لا أفهم ما هذا الهراء ما كل تلك الأشياء وأين كانت؟؟ كانت في مكتبي أمامي عيني، ومن هذا؟ وما الذي يجب علي تذكره؟

أخذ عقلي في التساؤل كثيرا ثم وضعت الشريط وقررت أن أرى ما به، فجلست على طرف ذلك المكتب ورجلي اليسرى تتدلى عن اليمنى كثيرا، بدأت الصورة تتضح أكثر حتى وجدت نفسي أمامي على سرير نومي وزوجتي بالجوار نائمين، صدمت بما تشاهده أعيوني، ما هذا؟ وكيف تم كل هذا؟ أصاب عقلي الجنون، اعتدلت من جلستي واقتربت أكثر إلى الشاشة حتى إنني أغلقت الباب وتأكدت من الخارج، شاهدت نفسي قرابة العشر دقائق نائما وزوجتي أمامي وتلك الكاميرا تلتقط فيديو موضوعة بالمقابل مني وأنا لم أكن أعلم عنها شيئا.

وأسودت الصورة بعد دقائق وانتظرت لثوان في صدمة وقلق لا أتخيل كيف حدث كل هذا! ومن المسؤول عنه.

وهنا شلت أفكاري حين سمعت أصوات كراس توضع دون أي صورة وصوت بكاء وطلب مساعدة، وأصوات سب وقذف بأبشع الألفاظ، وصوت تنفس مرعب وماء صنبور لم يُغْلَق جيدًا فترك ليصدر ذلك الصوت القاتل، كل تلك الأصوات المُتداخلة لا تأخذ أي صورة على تلك الشاشة فقط سواد مظلم، حتى تغلل السواد ذلك الضوء المنخفض ليظهر رجل يجلس على كرسي، لم تظهر ملامحه ولكنه يحاول أن ينهض ولا يستطيع، وضوء آخَر يظهر في المقابل من الشاب، فتاة يظهر شعرها الهائج دون ملامح تظهر.

كل تلك المشاهد من زاوية أحدى الغرف، حين ثُبتت كاميرا تصوير في أعلى الزاوية لتعرض لي، أو لعلها تسجل لصاحبها جانب الجريمة الكاملة، زادت صرخات الفتاة وطلبها للنجدة والمساعدة ونطقها لاسم "هشام" الشاب الجالس أمامها، وهو بسبابه وألفاظه المستمرة في الانطلاق لا يعبأ لنداء تلك الفتاة.

الجو مظلم جدا، فقط أرى جسدهم وهو مقيد على أحد الكراسي أمام بعضهم البعض نظرًا لقلة الإضاءة وصعوبة التصوير الكامل من تلك المسافة، فلم أرَ ذلك الشخص ذي الصوت الغريب حين تحدث، فقط أرى وشاحا أسودا على تلك الأرض لرجل وضع ذلك الوشاح حتى الرأس.

- أهلا أهلا، هشام سعيد، تحب أندهلك بالملياردير؟

كـان صـوته بشـع بعـض الشـيء وهـزل أحيانًـا وبـه نبـرات السـخرية والاشمئزازية، هنا سكت هشام عن السب حتى يسمعه، وبدأ هشام مرَّة أخرى في القذف:

- أنت مين وعاوز مننا إيه يابن ال...

قاطعه سريعًا وتحرك له حتى كادت تظهر ملامحه ولكنه سرعان ما أخفى ملامح وجهه بوشاحه المظلم، وضح من ردة الفعل أنه أمسكه من وجهه وبدأ بصوته الغامض المرعب:

- أنت شكلك عاوز تموت قبلها؟

هنا صمت هشام وبدأت هي في البكاء مجددا:

- أنت عاوز مننا إيه؟ سيبه هو معملكش حاجة.

وضحك ثانية بصوت أعلى من ذي قبل وسرعان ما تحولت النبرة لغضب ثانية:

- هـو أنت عـاوز تفهميني إنك لسـه بتحبيه؟ أنت بتحبيـه يا دنيا؟ ولا انتي مقولتيلهوش لسه على خالد وعلي و..؟ هما كانوا خالد وعلي بس؟

هنا سكتت دنيا وزاد جحوظ عيونها وضربات قلبها أكاد أسمعها، وبدأ هشام يتغير أسلوبه وانفعل:

- أنت بتقول إيه؟

فرد عليه دون أن يتحرك من جانبه.

- لا خلينا نسألك أنت الأسئلة المهمة دي، أنت بتحبها يا هشام؟

أصيب الجميع بداء الصمت للحظات ثم بدأ بصوته الغامض:

- اتنين بيحبوا بعض، لأ، هما عمرهم ما حبوا بعض، كانوا بيحبوا شهوتهم والاحتياج بس، غير كدا لا، هو بيفضي شحنة الاشتياق بسبب الشهوة وهي بتفضي الاحتواء اللي مطلوب في أي علاقة في شهوة قذرة، صح؟

تخيلت للحظات أنَّ لهم رد على ذلك أو إنَّه سيسكت للحظات.

- خناق وخناق ومشاكل وكل يوم ضرب، وبعد كل دا بعد كل اللي بيحصل، وبيجمعكم سرير قذر، بتجمعكم شهوة وبس، كل حياتكم كانت عبارة عن جنس، هواكم وحبكم حتى وجودكم كان عشان الجنس، قوليلي كدا انتي كملتي عشان إيه؟ ليه مفضلتيش مع علي ولا غيره ولا غيره؟ ليه كملتي مع هشام بس؟ ممكن عشان اكتفائك الجنسي، ممكن

إيه! دا أكيد، بقيتي عاملة زي الوحش اللي عاوز ياكل وخلاص بس أهم حاجة اللي يشبعه، وانتي مفجوعة.

وانت شبهها، لقيت اللي يكفيك، بس انت ملقتش اللي يكفيك حب، اللي يكفيك سهر وشرب وفلوس وأي حاجة غير الحب، بقيت زيها، رفضت فكرة الجواز عشان تبقى كدا، من غير مسؤوليات ولا أي حاجة تفكرك إنك ليك عيلة أو ليك حدود، فكرت نفسك طير حر ملكش عش، بس الأكيد إنك عمرك ما كنت طير، ومستحيل تبقى حر.

تخللت كل هذا تلك الصقفة الغريبة وبعدها نادى بصوت مخيف:

- هاااايل!

هشام بيه، شاب غني رافض لفكرة الجواز لمجرد إنه عاوز يبقى طير، يومه بيبدأ بإنه يصحى العصر من النوم، وينتهي بسهراته وقماره وليلة حمرا مع واحدة، أي واحدة، السؤال هنا هي كانت ممكن تبقى أي واحدة ولا هتبقى دنيا بالذات؟

هنا نطق هشام ولكنه سرعان ما قاطعه:

- أنت عاوز إيه مننا بالظبط؟؟

صرخ في وجهه مُسرعًا:

- أنا عاوزك تفوق، عاوزك تعرف إنك عايش، عايزك تعرف إنك مش ماشي ورا شهوتك وظلمك بس، ليك قلب ليك عقل، عايز أفهمك إنك غلط، قتلت صاحبك ليه؟ عشان كاسين خمرة ولا عشان بص للقمة اللي في إيدك وعاوزها؟

هنا نطقت دنيا بعد صمت طال بصوت يسوده الوجع والصدمة:

- هو انت اللي قتلت علي يا هشام، انت اللي قتلته؟؟

رد عليها سريعًا ذو الوشاح الأسود في سخرية ليلة باردة:

- كانوا بيلعبوا عليكي لعبة بسيطة، اللي هيكسب يطلعلك بس ليلة واحدة، وحبيب القلب خسر، مفيهاش حاجة يعني لما يقضي معاكي واحد تاني غيره، قوليلي بس كنتِ هتوافقي؟ مترديش ومش عاوز أعرف، بس لما خسر حبيب قلبك دا دمه فار قوي واتعصب واتنرفز، اوعي تفكري إنه غار عليكِ ولا حس بغلطه ومكنش باعك من الأول، بس اللي ولع فيه واللي خلاه يقتله بسكينة تلمة هي خسارته مش أكتر، داق معنى الخسارة، شوفتي بقى غلاوتك عند حبيبك هشام قد إيه؟ شوفتي بقا إنك رخيصة قوي.

سريعا وفي غضب ردت عليه دنيا في بركان من الإهانة فقاطعها بصوته الغامض قائلا:

- هو انتي حسيتي بطعم الإهانة قوي؟ حسيتي بيها؟ لا بجد برافو عليكِ بتعرفي تحسي، كانت فين بقا العصبية والشهامة دي لما فكرتي وقررتي إنك تجمعي بينه وبين صاحبه عشرة عمره؟ إيه مكنش مكفيكي؟

انهار هشام ونسي للحظات أنه لا يقدر على الحركة.

- انتي إيه! مفيش عندك دم بتلوميني على موت واحد انتي السبب فيه، انتي السبب في كل دا.

رد عليه ضاحكا:

- هي كلمة مش مكفيكي عصبتك قوي؟ انت ولا حاجة عندها، انت مجرد راجل هتنام معاه الليلة دي بس فلازم يبسطها، مش أكتر من كدا، وهي برده بالنسبالك ولا حاجة، خليتوا مفهوم الحب دا بس، خليتوا مفهوم الحب جنس وبس، وعمره ما كان كدا.

سكت فجأة وعاود الحديث مرة أخرى:

- الحب طول عمره أنقى من أمثالكم، أنقي من أفعالكم كلها، الحب عمره ما كان سرير وباقي اليوم مشاكل وصوت عالي، الحب هو إنك تعيش ليها تعيش في بيتها اللي هي المفروض بتصنعهولك حنان وحب واحتواء، الحب اهتمام وتقدير، الحب بريء منكم ومن كل شهواتكم.

ثم قطع حديثه صوت تلك الساعة التي أشارت حين ذاك بعقربها الكبير لتصدر ذلك الصوت وهو يضحك بصوت عفوي مخيف كثيرًا أخافتني تلك الضحكة وأنا أشاهد، أو أنني أسمع فقط.

وبصوته المشؤوم نطق وفي نبرته الكثير من المرح الزائد:

- وقت الحساب، أو وقت التحدي، الوقت اللي هنبدأ نتعلم كتير أولها إننا نتعلم ازاي نقتل يا هشام.

تصرفه الغريب ونطقه لتلك الجملة واستفسار عقلي عن سر تلك الساعة؟ وكلها تساؤلات في عقلي المشتت وأكتر ما يشتتني هو نطقه بالقتل، هل سيقتلهم؟ أم سيقتله فقط.

- تحت كل واحد فيكوا مسدس..

نعم سمعتها بالفعل بنفس النبرة الهادئة أخافني أكثر تحول نبرة الصوت الناطقة بمعاني الحب للهدوء المستفز:

- طلقة ومسدس، وواحد بس هيموت.

تحدٍ رسمه بضحكة أخيرة مخيفة..

- يا ترى مين اللي هيدوس على الزناد الأول؟ هشام ولا دنيا؟

ذلك الاختبار المجنون وذهابه ناحية دنيا ليفك عن يدها ذلك الحبل ثم اتجاهه لهشام الثائر ليفكه هو الآخر حدث في جزء من الثانية، كأنني أنتظر شيء ما يحدث أو أن يخرج من الشاشة إعلان بأنَّ كل هذا خيال أو أنَّه مجرد خدعة نقوم بها، لم يحدث ولم يخرج من الشاشة أي شيء، فقط كل شيء تم، زاد الظلام للحظات ثم إذا بكشاف نور يضرب على وجهي هشام ودنيا، فتظهر ملامحهم أكثر فأكثر.

أعطى لهم الإشارة بالبدء فحمل هشام هو الأول ذلك السلاح ثم حملت دنيا هي الآخر بدورها المتوتر وحملها الهزيل له، نظرات هشام مريبة بالكاد أرى نصف وجهه الغاضب وهو ينظر لدنيا في غضب، وهي تبكي على الجانب الظاهر أمامي من خدها الرطب.

وفي سلاسة الأمور، أمسك هشام بأعصابه وضغط على ذلك الزناد ولكنه لم يكن في اتجاه دنيا إنَّما في اتجاه ما على يمينه.

بصرخات دنيا كانت الأجواء والصمت الذي لم يدم كثيرًا، فخطة هشام للقضاء عليه بفرصته الوحيدة للنجاة لم تفلح قط.

فلم يتأذَ وخرج من ورائه متدلي اليدين نازعا من يده سلاحه، ووضع تلك اللكمة التي أمالته شبرا على الأرض ثم رفع ذلك الرجل رأس هشام مرة أخرى إليه:

- كانت آخر فرصة ليك، كانت فرصة إنك تخلص منها وتبدأ من جديد، والفرصة متتكررش.

ترك صرخات هشام الصامدة وبدأ ينظر إلى دنيا، لم تظهر نظراته ولكنه رفع من قامته ووقف أمامها:

- الفرصة دلوقتي ليكي، اختاري، تخرجي من هنا ودا عاوز ضغطة زناد واحدة تخلصي بيها، وإنك تفضلي كدا.

كان الاختيار صعبا، فهو يخيرها بين حبيبها أو حتى لو كان مجرد رجل تجمعها معه علاقة سرية فقط، ولكنها ستقتل إنسانا، ستقتل روحا، ساد الصمت للحظات، وانتابني الفضول القاتل لقرارها، بدأ هشام بأنْ يترجاها ألا تفعل وزاد في طلب هذا حينما بدأت في رفع سلاحها أمام وجهه، وبتوتر الحرباء المتلونة وخوف الثعلب بألا ينجو، ضغطت المرأة على ذلك الزناد وقتلت الرجل، قتلت المرأة الرجل لتحيى.

في بداية الأمر صوت إطلاق النار أفزعني كأنني لم أسمع صوته يوما قط، كأنني لا أضرب تلك الطلقات يوميا، كانت تلك النغمة جديدة علي بالفعل جديدة فلم أرَ ذلك الغدر يوما.

وبعد الإفاقة من الصدمة لم ألحظ انتهاء الفيديو عند هذا الحد فأصابني الذهول الصامت، بدأت أسأل نفسي، ماذا وإن لم تفعل، هل كانت ستنجو؟

تركت ذلك الشريط وأمسكت الصندوق مرة أخرى أقلب ما به وأفرغه ولكنني لم أجد شيئا جديدا غير تلك الورقة التي كتبت به تلك الجمل، أدرتها مرة أخرى لأنظر للأسفل فأجد إمضاء باسم "عاصي".

"إنَّ الحب عطر، يهوى الجمال، والجمال في عصرنا هو الجسد، والجسد هو الجنس، فالحب جنس، واكتفاؤنا منه يعني الحياة، ونشوة الحب تشبه في ظلمها الموت"

تمر الدقائق بل الساعات وأنا لازلت أجلس في غرفة مظلمة أقرأ أوراق كتبت على آلة قديمة تحت مسمى لغزه الخامس والأخير كما يتضح، ولكنني كنت بصدد ألغاز متتالية وأشخاص كثيرون لعلهم ضحايا لتلك اللعبه اللي يديرها، كمثل ما أنا! كلنا ضحايا لشخص معتوه أبله، أفقده

الموت طفلته، ولكن من أنا لأكون سببا في ذلك كله ولمَ لمياء ولمَ آدم؟ لمَ كل تلك الفصول ولمَ كل تلك القصة؟ كان له أن ينهي الأمر بقتل الموت؟؟؟ ولكن كيف؟؟

كلها أوراق أقرأها، أتشوق للنهاية فكل هذا أعلمه، أعلم أنه حزين على ابنته المفقودة، كأنه الأوحد الذي ماتت له ابنة، ليقف كل العالم وكل الدنيا من أجلها، صدمتني غرابة حلمه، ولكن بكل ما جرى لا أستطيع أن أخذ كل كلماته على أنَّها حقيقة، فقط تركت تلك الورقة البيضاء متوسطة الأوراق التي أنهيتها للتو لأقرأ بعد تلك الورق شيئا آخَرا عن ذلك المجنون، وكأنني أقرأ سيرة حياة ظالم.

****

(٦)

صديقي العزيز (رفيق)

وبالبداية التقليدية في تلك الأوراق سأكتب، كيف حالك؟

لا زلت أكتب على تلك الآلة التي يسعدني حديثها بتلك النغمة الثابتة، أكتب الآن تلك الورقات في ليلة باردة من شتاء قارس لا يعرف العدل، فيقسو على ما لا يتحمل تلك القسوة أبدا.

علمت الآن سر تلك اللعبة وتلك الألغاز التي تقربك من حقيقتي، ولكنك هنا في شقتي لتعلم حقيقتك أنت، فأنت في عالمي، أنت تلك الشعب الصاعدة من قلب محيط، قلبه هو أنا، وأمواجه هي قصتنا معا.

هناك الكثير من تلك الحقائق التي بالفعل ستدهشك، أملك كل الثقة في قولي وإطلاق تلك الكلمة، أنني هو البحر الأسود الذي تبحث في أعماقه عن ملاذ، إنه أنا البحر الذي تغوص فيه دون أي مساعدات، لم تشهد من قبل غوصا أعمق من هذا، فقط كنت كحجارة تنشطها الأمواج وحركتها فتتحرك وتشهد وغير ذلك لا.

فأنا البحر الأسود الذي أنت فيه الآن، هو أنا البحر الذي يملك كل قوانين توازن حياتك، أنا البحر الذي تغرق فيه وتختفي وتندهش من غيابك المستمر، غيابك الدائم، فأنا كنت الأصل وأنت تلك الصورة التي

أخذها مصور بارع في نهار مشرق ثم مات وتاهت الصورة في بحر معتم، وسميتك جزءا مني لأجعلك مني.

فحياتي عبارة عن حزن وفراق وكنت أنت الجانب اللامبالي، شيطاني الأخرس وعيوني التي لا تبكي، كنت تلك الحجارة الصامدة الساكنة في مكان في أقصى العمق لا تثار ولا تعبأ بكل ما يحدث وكل ما حدث.

وهنا سينتهي سكونك الدائم وتبدأ إثارتك الدائمة فلن تسكن بعد اليوم تلك البحار ولن أسكن المجازفة في حياتي وحدي.

لعلك تسأل عن كل تلك الأوراق التي بين يدك، لا تقلق يا صديقي ستعلم كل شيء في وقته، هي أشياء ماض قد تم وحاضر يحدث ومستقبل نأمل ألا يتم.

استيقظت ذلك اليوم لا أعلم ما معنى الحلم الذي راودني تلك الليلة، من تلك المرأة التي تحمل ابنتها وتتمنى موتها، من ذلك الشاب الذي يهوي دون حدود أو فواصل للحياة، كلها تساؤلات أخذت عقلي في الشرود الدائم.

أمسكت ساعتي المكسورة لأرى وقتنا الحالي، فغفلت عن مران اليوم فاطمأنت رئتي وانزعج جسدي ولعن مخي جانبه الحالم، فأخذ الحلم هذه المرة وقتا أطول، بل إنه أكثر طولا من ذلك الحلم المتكرر، وعلى ذكر

هذا، فلم أحلم تلك الليلة بذلك الكابوس الذي يراودني مرارًا من يوم تلك الحادث.

لم أر تلك الليلة ابنتي، أو تلك الفتاة -التي لا أميزها- وهي تجري أمامي دون توقف، ولم أرَ في تلك الليلة من حلمي تلك السيارة وهي تصدمها، فتقع على الأرض وأفيق أنا من كابوسي كل يوم، نافخ الصدر ومتعطش ليرتوي قلبي بذلك السعال المستمر.

حتى وقت قريب يا صديقي لم أعلم من تلك الفتاة وأي حادث هو ذاك المتردد على حلمي، بالطبع هي ليست ابنتي، فابنتي بين عيوني ماتت، وبين ضميري كل يوم تموت، وفي لب عقلي أسمع صراخها بلا تقطع.

أصوات تلك السيارات وتلك الضوضاء كلها كأنني بجوار حديث أحدهم في سيارته أو أنني في حفلةٍ صاخبة لا أسمع غير ذلك الوش المستمر ولا يصلني أي من تلك الشفرات، كأن عقلي لم يعد يستقبل كل تلك الرسائل الكهربية فيحللها إلى شفرات ويفهمها عقلي بدوره المعتاد. توقف كل شيء، حتى بعد استقلالي للمترو، كل تلك الأصوات كأنها لا شيء، فعلا لا شيء، أراها بفستانها القصير تجول بين الناس فأخطفها بين ذراعي خوفا وضحكا، أراها تهمس لي فتسألني لم تلك السيدة عجوز؟ فأجيبها أنها

نمت كشجرتك النامية وتتساقط ورودها؟ فتغضب لعلمها أن شجرتها ستذبل وتموت، وأرسم كل الفرح على وجهي الباسم.

فأندم الآن على إجاباتي كلها، أندم على تفكيري، فتلك العجوز لم تذبل لتموت ولم يكن الموت هو ذبول لجسدها، إنَّما الموت هو ذبول روحنا وهنا كان الموت.

وهي ماتت دون أن تذبل، ولا أفهم أهناك عيب في تفكيري أم أنَّ النظام الذي أنا فيه لا يعرف الثوابت ويلين ليحزم في حياة رجل آخَر.

أفقت مِن شرودي في المترو على تلك الفتاة باكية الوجه مفزوعة الملامح، مصدومة العيون، وهي تبوح بسر ما، تنظر لي في عجب، تنظر في جحوظ لامع، هل تعلمني تلك الفتاة، أم إنَّها في ورطةٍ ما؟

أخذت عيني تقلب يمينا ويسارا لأجد ذلك الفتى الواقف خلفها، بغريزته الحيوانية وعيونه القاتلة، كأنه يسرق، أو إنه يحمل وزر ما، يحرك يديه في اتجاهات مختلفة يلمس بها جسد الفتاة، وهي لا تصرخ وأنا أشاهد في صمت، خطر في بالي أن أقذفه بشتائم عِدَّة، أو ألكُمه على وجهه فيستسلم، أو أنني أذهب لأقف بينهما فأمنع ما يحدث، كل تلك الخواطر وكل تلك الاقتراحات جالت في خاطري كثيرا وكثيرا في نصف ثانية خطر

ببالي أكثر من سبعةِ طرق أبعده عنها، ولكنني اخترت أن أقف وأشاهد دون حركة.

فقط أشاهد.

أشاهد تلك الفتاة طالبة الرجاء، وتطلب بعيونها اللامعة نجدتي، تطلب مني وأنا أشاهد دون حركة، أشاهد يده المتحركة على أجزاء من جسدها كأنَّه يحركها على جسدي، كأنه يمسكني من خصري خلسة، وينظر أمامي في كل الإتجاهات ليؤمن لنفسه مسكة إضافية في جسدي، كل تلك المشاهد وأنا أقف مكتوف اليدين ناظر بعيوني الشاهدة دون جدوى.

نعم أنا شيطان أخرس، فكنت شريكا في ما حدث.

ولكن ما يأخذني في بحري الغامض هي نظرتها القاتلة، لا أنساها، لا أنسى نظرتها وإحساسها المنكسر وطلبها المرفوض، لازلت أتذكر وجهه الصامد وهدفه القذر، وفوق كل ذلك مازلت أتذكر وقفتي وهروبي من الحقيقة وصمتي الشاهد وجنوني الانفعالي الذي لم يحدث.

فأنا يا صديقي ظالم.

وعلى ذكر قولي أنني ظالم، فكلنا ظالمون يا صديقي، فأنت ظالم وهم ظالمون، كلنا نملك من الظلم نصيبا كتلك الخزينة التي تمتلئ بالمال كأن

الظلم يملأ عقولنا، فنتج عنه إنسان ظالم، ظلم تلو ظلم يعطي للحياة الكثير من الدراما، وهو ما أنا أكتبه الآن وتقرأه غدًا، فقط الوقت هو الذي يفصلنا على ظلمنا، ولكن يبقى الظلم ظلم، والحقيقه تختفي.

وصلت مكاني المطلوب حيث الشوارع الضيقة، والرائحة النتنة الغامضة بنورها الخافض الهادئ، بأصوات القوارض والليل الساكن، فكنت أنا وأصوات خطوات بتلك الليلة أقصد إحدى الشقق الجديدة لأُشبع رغبتي الساخرة ورغبتكم الدائمة.

فكرت أن أكتب هذا الجزء بضمير غائب، ولكنني على علم كل العلم أنني أستحق أن أضع أنا في نصف تلك الكلمات وأضع ضميري المتكلم نيابة عن ضمير غائب يرفض الإفصاح عن كل شيء وعن كل ما جرى.

تركت الباب لتفتح إحدهن بمسحوق وجهها الأبيض الرطب وشفتيها المنتفختين وحاجبيها المتمردين، لم تكن بالأجمل إنما الأفضل من حيث الإدارة، سألتني عن رغبتي فكنت أنا الهادئ الصامت قليل التحدث قليل النظر عميق الوجود.

بكلمة واحدة تركت تفكيرها وفضولها لعقلها لتقم وتبحث عما يشبع رغبتي، فجلست في مرمى ما وراء ستار يغطي الجانب الأعلى ويكشف عن سيقان الفتيات وهن يتحركن خفية من معرفتي، وبالكاد سمعت

ضحكاتهن الصاخبة همساتهن، دخلت علي في غضون دقائق بواحدة ورائها، أزعجتني تلك العلكة بين أسنانها، فحركت رأسي بالرفض.

لحظة أنا لم أنبهك أنني في بيت أستخدم فيه هيمنتي وترتيب عمري لأختار واحدة فقط لليلة، أو ما يسمى بيت الدعارة، لا تغضب أو تتقزز مني، فكلنا نستخدم نفوذنا لنفوز بامرأة للفوز بليلة، ولكني أفعل المستحيل لأحظى بأنثى كل ليلة بأمور أبسط منها.

بعد لحظات وبعد أن انتهت تلك السيدة من غضبها على الفتيات أتت بواحدة أخرى، أطول من ذي قبل، لم تحمل في فمها علكة فتستفز رجولتي، إنما كانت أطول وظهر عليها سنها الأكبر، فرفضتها بتلك النظرة مجددا، لتغضب السيدة ثانية ولكن تلك المرة أمام عيني، فذهبت بعد لحظات لتجلب أخرى، فكانت أصغر من ذي قبل لفتت انتباهي ولكنني رفضت، ثم الأخرى فالأخرى، حتى أتت بتلك الصغيرة، فتاة في عمر الخامسة عشرة تحمل بين عيونها تلك النظرات الصغيرة الهادئة الحزينة المرتعبة، بسيقانها الرفيعة الهزيلة وجسمها النحيف، وشعرها غير المهندم وقصتها البالية، كلها طفلة، وقفت أمامها أحمل عن وجهها قصات شعرها المتدلية الساقطة، لتنظر للب عيني كل النظر وكل الخوف، فسألتها كم عمرك، تسمرت غير ناطقة، أجابت سيدتها بعمرها خمسة عشر عاما من اللاشيء، فأشرت لها بأن ترحل وتغلق ذلك الباب،

تترك لي كل شيء، لم تذهب، تركت لها نقودا عدة فخرجت فرحة سعيدة بإنجازها، فلم يأكلها الذنب.

فهل أنا أعبأ بكل هذا؟

لا يا صديقي، تتذكر ذلك الرجل الذي وقف وراء تلك الفتاة في المترو كان هو أنا، وكنت أنا الظالم، كنت أنا وكان الناس أمامي مثل ما وصفت، سكون تام، سكون لا يعرف الحدود، وكنت أنت هناك مع كل الناظرين وكل الصامتين الساكنين، كنا بكل مروئتنا المميتة الميتة فلم تتحرك لشبر وتوقف ما حدث، وحين انتهائي أو انتهاء أي منا من إشباع رغبته إن كانت شهوانية أو شيطانية فإننا ننعت الفتاة ونسب المجتمع ونحيا رجالا دون ضمير.

وقفت وراء تلك الفتاة أيضا أتحسس شعرها وقصره، فأخذت يدي تلك اللفّة الدائرية وشعرها معي لأمسكه كله فتتحرك رأسها لأعلي مع تلك الصرخة البريئة، وأنزع عن بنطالي حزامي الجلدي، وبكل تلك القسوة التي تعلمتها من الدنيا، وبكل تلك القذارة التي تصفني بها الآن، بكل تلك الوحشية التي وصلت لها، أمسيت أضرب جسدها الهزيل، وهي تبكي لا

تستطيع أن تتحرك أو تفلت من بين قبضتي، لا تستطيع أن تنادي والدها لينقذها من يد ذلك الوحش.

فأنا كنت الوحش، وهي كانت الجميلة، فلم يحبها الوحش كما فعل في قصتها المعهودة ولم تأمنه الجميلة بسذاجتها المعهودة، كنت أنا ذلك الوحش، كما فعل والدها، كنت أنا ذلك الوحش كما كانت حياتها، كنت ذلك الوحش كما فعلت أنت وهم فعلوا، فلا تلومني بتلك النظرة وأنت تقرأ فكلنا ظالمون، وأنت الآن في ظلمي وفي حقتبي السوداء وبحري الأسود.

تركت ذلك المكان، فلم أسمع لوقت طويل لم أعِدَّه نداء الخارج وطرقهم المستمر على الباب، ونداءهم، تركت كل الدماء التي تسيل منها بكل ذلك البرود وتركت كل تلك الفوض، ورحلت وسط دهشة الناظرين وغضبهم الصامت، وألقيت بعض النقود في وجه تلك المرأة كأنني أعوضها أو أقوم بإذلالها لم أعلم، ولكنني تركت كل شيء وهربت وفي صمت رهيب.

أفكر في ضحيتي الأخرى ورهينتي الطفلة، وأنا أجوب شوارع العالم لأبحث عن فتاة أخرى أذلتها الدنيا لأنهيها أنا، كأنني أنتقم من العالم أجمع بما حدث لابنتي، فأقتل كل فتاة وكل طفلة، وهذا مما نفعله جميعًا.

هذا ما نفعله جميعًا يا صديقي.

****

لـم أنتبـه لإعـلان الشـمعة الجالسـة أمـامي بـالتوقف عـن إنـارة عـالمي الأسـود، لـم ألحـظ أنني أتوجـع أو أن بعـض مـن تلـك الشـموع الملتهبـة سـاقطة على يـدي فتحرقني، لـم أجـد نفسـي تتـألم، فقـط أنـا في صـدمة مريبة من الأمر كله.

فهي صدمات، كلها صدمات فبكل حرف أقرأه على تلك الشموع التي أنيرها كلما أفرغت واحدة تلو الأخرى شحنتها، صدمات كلما قرأت سطر تلو السطر، لم أفق من صدمته الأخيرة، ولكنها الحقيقة بكل ما تحمله من حبرٍ أسود، بل بكل ما تحمله من دماء تلك المسكينة، للحظات شعرت بقذارة الأمر ثم أدركت ما يرمي عليه بفكرته.

أدركت أننا نهوى ظلمنا.

ونعشق الأجساد.

ونحب الانتقام.

أخذت أُقَلِّب الورق الفارغ حتى وقعت عيني على ورقة لطَّخها الحبر الأسود عدا تلك البقعة من البياض التي كتب عليه آخِر سطر من تلك الرُزمة الورقية، وهنا وضع حقيقتنا المتوارثة.

"إن الحب عطر، يهوى الجمال، والجمال في عصرنا هو الجسد، والجسد هو الجنس. فالحب جنس، واكتفاؤنا منه يعني الحياة، ونشوة الحب تشبه في ظلمها الموت"

طويت تلك الورقة إلى أربعها الظاهرة ووضعتها في جيبي، لم أع ما أفعله ولكنني أحسست ببحره الأسود يغطي ملامح الورقة فتفيض موجة بذلك السطر لتغرقه ألما، أشعلت شمعة أخرى غير الموضوعة على تلك الطاولة ثم توجهت في أنحاء الغرفة لأجد أي شيء آخَر، فبالتأكيد لم يترك فقط كل تلك الأوراق دون أي شيء آخَر، تذكرت ذلك الباب المغلق فزاد الفضول نحو ما وراءه من أسرار، وقفت أمامه أحاول فتحه بالطريقة المعتادة، ولكنه لم يستجب، ذهبت أبحث في أرجاء الغرف لأجد ذلك المفتاح، زاد توتري حين سمعت صوت الماء يتدفق في الداخل، صوت الماء كأنه شلال اندفع مرة واحدة لأسفل يعطي ذلك الصوت المزعج، قوة الفضول تسحبني عكس اتجاهي نحو ذلك الصنبور لأغلقه.

ولكنني لم أتحمل صوت غير صوته في تلك الأوراق فذهبت لأنهي تلك الضوضاء.

لم يكن بالحمام التقليدي فالسواد القاتم وذلك البانيو الموضوع في منتصف الحمام أبرز ما رأته عيني بنور تلك الشمعة وهي في يدي، اقتربت أكثر نحو الحوض الذي امتلأ بالماء ففاض على الأرض، بهدوء ومرونة الهارب أقفلت ذلك الصنبور، ولكنه أبى أن ينغلق تمامًا ليبقى منه تلك النقاط التي تسقط لتتلف الأعصاب.

رجعت من تلك الغرفة المميتة وأنا أشم رائحته فيه، ورائحة ذلك البانيو الممتلئ بالماء، كأنه خرج للتو منه، أخذني فضولي المميت لأرجع مرَّة أخرى إلى الحمام فأنظر في تلك المياه بضوء الشمعة المنعكس، لأجد وجهي قد ظهر ضئيلا جدًا ولم تظهر ملامحي، أصابني الفزع، حتى قررت من اللاشيء أن أفتح سدادة الماء تلك لأسمح بالماء أن يتدفق بعيدًا عن ركوده، وبالفعل وأنا أقف من جديد مستقيما وقعت من جيبي دبلتي ركضا في الماء فسريعًا وضعت يدي مرة أخرى لأعثر عليها، فلمست يدي ذلك الشيء الصلب، أمسكته لأعثر على مفتاحه المفقود وأعثر على مفتاح بابي لأريح فضولي فنسيت أمر الدبلة ونسيت أمر الماء، فبدأت أسرع بالشمعة وفي يدي الأخرى المفتاح نحو الباب.

(٦)

المرأة سجن ينقصه المجرمين.

٧ / ٩ / ٢٠١٧

مرت ليال صعبة وأنا أنظر كل يوم إلى ذلك الصندوق الأسود وأتذكر الفيديو بكل ما يحتويه وموت هشام، ودنيا وما فعلته وطريقة إيجادي لذلك الأسود، كلما تذكرت تلك الليلة يزداد وجع رأسي وأسمع دقات قلبهما وصراخ دنيا وصوت عيار دنيا وهي تطلقه على عشيقها، وأجد كل ليلة نفسي في نفس المكان وأنا مقيد مكان هشام وزوجتي وأحيانا دنيا بملامحها الحزينة تنظر لي ممسكة بذلك المسدس وتضغط وتطلق علي رصاصه أفيق منها من نومي، وتبدأ نوبة الصداع المميت.

تلك هي نفسي طيلة تلك الأيام وذلك السواد، أنتظر أي جديد لعلني أصاب برسالة أخرى مجهولة، أو أنني أجد نفسي في لغز آخر لا أعرف عنه شيئا، أصبحت مهووسا أغلق الباب مرارا وأتأكد أنه لا توجد كاميرا تسجل لي نومي وأتأكد من كل شيء ألف مرة ومرة، أصبحت مهووسا لحد الجنون، تخيل لي ذاكرتي أشياء غير موجودة، أنظر لنفسي في المرآة أجد هشام ورائي، وأنظر لزوجتي مرات عدة أجدها دنيا يوم قتلها لهشام، هربت من كل تلك الأشياء سريعا، أتهرب من حضن زوجتي وهي قلقة، ولكنها ثابتة راكزة لا تسألني ما بك، كأنها تعلم شيئا لا أعرف عنه شيء، فكرت كثيرا أن أريها الفيديو ولكن داخلي ما يمنعني من ذلك الفعل.

استيقظت يوما آخرا ممسكا برأسي فأمسكت هاتفي وأردت أن أتوجع بعيدا عن مسامع زوجتي، فنظرت له لأأجد رسالة فائتة مرسلة في الثانية عشر بعد منتصف الليل، كتب عليها الثاني، لم أفتحها وسرعان ما اتصلت بذلك الرقم وكان كأي شيء

يأبى عن الفهم أن يصل لعقلي المتوجع، ونظرت مرة أخرى لكلمة الثاني وفتحت الرسالة، وبدأت أقرأ من جديد.

"القوي لا يرى الضعيف

والضعيف لا يكترث لحجم الكبير إلا وجع

والقلب لا يحب إلا الانتقام

ولغزك الثاني في إحدى غرف المستشفى، دع لعقلك القيادة"

قرأتها خمس مرات لأفهم ما يرمي له ولكن دون فائدة، أي مستشفى تلك التي سأتوجه لها ولأي لغز؟ ومن هذا؟ وكيف ستنتهي كل تلك الألغاز، هناك بداخلي من يخبرني أن أذهب لأرى بنفسي وهناك خوفي يخبرني ألا أفعل وأنهي كل شيء وكأنني لم أجد ذلك الصندوق أبدا، ولكنني وجدته وبدأت الألغاز بالفعل ولن ينتهي الأمر فذهبت.

أخذتني قدمي إلى الشارع أجوب كل تلك المسارات كتلك القضية، فتبين لي أنني أتحكم بكل مفاتن الأمور ولكنني لا أرى غير نفسي وتلك التحكمات التي يمليها علي من آن إلى آخر، أمسيت تلك الليلة أجوب تلك الشوارع حتى وصلت في اتجاه إحدى المستشفيات، وجدت نفسي تُسحب لطريق لا أعلمه فصعدت أدراج تلك السلالم

لأصل إلى موظفة الاستقبال وفي تلك اللية وهذه الساعات التي مرت، أحيانا يصيبنا الشك جنونا والوهم غضبا ولكننا لا نعلم أي من تلك الأسباب التي هي بالفعل منا.

- السلام عليكم

لترد علي وأنا شارد في قراري المتهور:

- وعليكم السلام، أقدر أساعد حضرتك؟

كأنني لم أسمع أحاول أن أجمع شتات نفسي، شتات عقلي بين تلك الحالات الطارئة التي دخلت مسرعة، ولكنني عدت لأنظر لها مرة أخرى، فماذا أفعل؟ ولم أنا هنا من الأساس ولم عقلي يدور بي؟ كأن بداخلي شخص آخر يريد أن يتحدث، كأنني أحارب طرفا آخرا للصمود على رأي ولكنني أمامها الآن وأمام ذلك السؤال، فأين الصمود في هذا.

- عاوز أسأل عن حالة اسمها.

وسكت للحظات ماذا أفعل؟ ومن هي؟ هل أصابني الجنون؟ بدأ عقلي يتشتت وهي ناظرة في قلق من أمري وتحيز.

- أيوة حضرتك اسمها إيه؟؟

- لمياء، اسمها لمياء.

خرجت من عقلي ولفظها لساني، من لمياء؟ لا أعلم، لا أعلم أي شيء، ولا أعلم لم اختارها عقلي؟ لم يأخذني الجنون كثيرا فسريعا بعد أن ألقت نظرة على دفترها الخاص، عادت بالسوال مرة أخرى:

- لمياء السيد؟

ورددت بسرعة كأنني أعرفها كل المعرفة:

- أيوة هي.

- حضرتك هي دلوقتي في غرفة رقم ٢٠٢

لم أشكرها أو لم أنظر لها بعد تلك الجمله، خوفا من أن ترى إبهام وجهي وتوتر أعصابي وخيانة ملامحي وحالتي التي يرثى لها، فتركت كل ذلك وأنا أتوجه إلى تلك الغرفة، وكأن شيئا ما يسحبني إلى أعلى ولا أفهم لم علي أن أستمر في كل تلك الأوهام التي يصنعها عقلي، ولكنها إن كانت الصدفة هي التي جمعتني برقم الغرفة فما بال ذلك الاسم الذي طرحه عقلي فجأة؟

استمرت قدمي في الصعود، أخرجت من جيبي تلك السيجارة التائهة بين كومات جيبي وتلك الأوراق، أشعلت سيجارتي ودخانها المتصاعد ليعلو صوت من أمامي فجأة بأن أطفئ سيجارتي اللعينة فإنني في مشفى، يا لي من أبله أحمق يخونه عقله في أمور عدة، رميت بسيجارتي المشتعلة على الأرض وسحقتها بقدمي، كأنني أسحق جسدي، كأنني ولدت لأنطفئ، وأنني سيجارة لم تنته بعد ولكنها ستنتهي بلا شك.

وصلت لتلك الغرفة فأجد ذلك الممر الواسع وآخره هي غرفتي المعهودة والمجهولة في آن واحد غريب، لأجد ذلك المكتب وتلك الممرضات وهن واقفات أمام تقاطع لممر آخر ينظرن في اتجاه ذلك الرجل الذي جلس على كرسي بجوار الغرفة ٢٠٢ فوضع رأسه بين يده وأخذ ذلك النفس الذي وصل إلى مسامعي، فاقتربت أكثر حتى أعرف من حديثهم شيئا، أمسكت هاتفي وأخفضت صوت رنينه، ووضعته على أذني أتظاهر بأنني أحدث أحدا وأنتظره في ذلك الممر، كأنني أبله أبحث عن فضيحة.

- هو لسه قاعد من الصبح؟

لترد أخرى في حرارة:

- هو قاعد وهي لسه جوة مبتنطقش.

بدأت الأمور تظهر رويدا رويدا، حتى قاطعتهم أخرى :

- هو في واحدة يبقى معاها الراجل اللي يبقى قلقان عليها للدرجة دي وتنتحر!

- اه والله مش عارفة الدنيا حصل فيها إيه، محدش عاجبه حاله!

لترد مرة أخرى عليها:

- سمعته بيقول لحد في التليفون إنها كانت في الحمام ولما فتحتله الباب بعد ما خبط كتير، لقاها قصت شعرها بالمقص وبعدين ضربت نفسها بيه، وكانت عاوزة تموت نفسها.

فينهوا حديثهم المريب في نفسي:

- ربنا يحفظنا.

ما زال كل شيء مبهما، كل شيء يحمل علامة الاستفهام الأكبر.

كل شيء يحمل الكثير.

ولازلت لا أفهم، بالتأكيد هي لمياء، ومن هي لمياء؟ ولم نطقت باسمها، لم عقلي اهتم بقضيتها، وقرر فجأة أن يسمع قصتها، هربت بسرعة أمام تلك الغرفة في ذلك الوقت مزامنا لما بدر منه عندما استقام ليفتح الباب، فأرى وجهها وهي جالسة، فينغلق الباب في وجهي وأنا أسير في طول ذلك الممر الذي بدأ في الظلمة فجأة وزاد الجو المبهم إبهاما.

لم تكن تلك النهاية هي التي أرجوها ولم تكن تلك النهاية التي رسمها عقلي التائه، هي فقط تلك الخيوط المتراكمة التي نسيت بدايتها وحين نطق عقلي صدفة اسم لا أعلمه بدأت تلك الخيوط أن تتفتح واحدة تلو الأخرى وسؤال يليه سؤال.

خرجت من ذلك الدور إلى أسفل بذلك العرق الذي أغرقني، تلك المسامات التي فتحت في جسدي كله فتغرقني توتر، وذلك المشهد الذي رأته عيني أمر آخر، فصدم عقلي بصاعق لا يتحمله أي شيء حي فيسقط ميتا لا محالة، وتلك الرعشة وتلك المسامات التي صدمها التوتر، كأنني أسقط مرة أخرى من مسافة الألف ميل إلى الأرض، فأسقط حين مرت من أمامي تلك العربة التي يحمل عليها فتاة تصرخ بكاءها المحزن المؤلم كأنها فارقت الكثير في دفعة واحدة.

فكانت هي.

كانت دنيا.

دنيا التي قتلت هشام.

تلك الفتاة في الفيديو هنا في المشفى ليلا.

دنيا المرأة التي لم تكن دنيا لأحد أبدا فقررت أن تهرب من سجنه المصنوع بقتل حبيبها، إنها دنيا، فكيف يعقل؟

(٧)

فأنا حتما سأعود لها.

١٥ / ٩ / ٢٠١٧

نصف ساعة، قرابة النصف ساعة وأنا اقف أمام باب مقفول أحمل بين يدي مفتاحه، أقف وذهول عقلي يمنعني وفضول روحي تأخذني خطوات أكثر للأمام، لا أعلم حقا ما السبب الحقيقي وراء كوني أخاف من اكتشاف الحقيقة أو معرفة اللغز، للحظات نسيت الطريقة الغريبة المخيفة التي وجدت بها ذلك المفتاح.

ولكنني تلاشيت كل تلك الصدمات، لم أعط أي اهتمام لأعرف الإجابة، على كيف؟ ولم؟ ومن هو بحق ذلك الليل المظلم؟

كل ما شغل فكري حقا هو أن أدخل إلى تلك الغرفة لأجد لغزا آخرا، أو لعلني أجد أوراق أخرى تقودني لبحار عالم آخر على سفينة في بحر من الحبر كُتب.

وبخوف الفريسة من الاقتراب للفخ كنت أنا، كانت عيوني تزداد في حمرتها الملتهبة وفضولي يزداد أكثر فأكثر، ثم فتحت الباب.

أصوات من الرياح تهب لتعلن لي الفوز، وأي فوز؟ فأنا لم أفتح إلا غرفة وجدت مفتاحها صدفة، ولكنه الفوز بالتأكيد. وجدت نافذة في النهاية تنير بنور القمر في بدره المنير، ليشعل الغرفه بشجنه المعتاد وروحه

الضائعة في الوقت الحالي من الليل، وقت الغروب، وتلك الأشعة الحمراء التي تميز الحزن والفراق، تزامنت مع فتحي للغرفة فتسقط على تلك اللوحات وتلك الصور المعلقة لابنته الراحلة، أراها ملاكا لا يعرف الموت، فقط ذلك الخلود، كأنه حبسَ روحها في تلك الغرفة فأبت أن تخرج مادام حيا.

أجول في الغرفة كأنني في جنة، وأي جنة! فكانت جنتها وعشها، وحياتها الجميلة الضائعة، جنة فتاة ماتت فصنع لها أبوها منها مزارا لقلبه الميت، أبحث في أرجاء الغرفة وتجدني تلك الأشياء وأتذكرها معه تلهو وتفرح، ولكنه الموت، الحقيقة الأولى، وهي ما يجب عليه تعلمها.

استوقفتني النافذة ورائحة الليل منها بنور القمر وذلك المكتب الصغير تحته وسر الغرفة، تلك الأوراق التي وضعت عليه، رزمة أخرى تحمل العديد من الحروف، رزمة أخرى تحمل أسماء عدة وحكايات أخرى دونها وهو يجلس على ذلك الكرسي أمام تلك الآلة.

أمسكت أول تلك الأوراق لأقرأ الاسم الأول والسر الآخر في غرفتها الحزينة، فكانت بعنوان "روح".

***

روح

ابنتي.

ابنتي الطفلة.

أنا.

أصابعي تعجز عن ذلك الوصف.

فأنا لا أقدر ولم أتعلم يوما لغة الموت لأحدثك.

أسمعهم كثيرا يتداولون الحديث عنك.

يقولون أنك رحلتي عن هذا العالم. ولكن إن كنت، فمن أحادثه في ليالي القمر الكامل.

من يصطحبني يوما في هذا العالم الزائف.

أصابت يدي توتر الكلام وبداية الحديث، فسقط الحبر لطخ وجه طفلتي الذي أحاول أن أرسمه على تلك الأوراق، أبحث في تلك اللغة عن حروف أخرى لتصفها أو لعلني لا أرى جيدا، فابيضت عيوني من البكاء، حتى إن لحيتي الصغيره الهائجة التي طالما حبيبتي اللعب بها.

يا لتلك الأيام وتلك الذكريات.

تعلمين أن لحيتي تشتاق لأصابعك الصغيرة.

وأنا أشتاق.

واعلمي أن كل تلك الدنيا الزائفة ينقصها شخص رحل عنا دون أن يخبرنا أنه لن يأتي ثانية، وأنتِ كنت خاصتي الضائعة التي لم تأت وأعلم أنك لن تأتي، تركت العالم دون أن أتركه معك.

هذا هو أنا يا صديقي.

الشخص الذي أتعبه فراق طفلته، طفلتي (روح) وصح الاسم فهي روح تركتني وجسدي الضائع يهرول في دنيا لا تناسبه أبدا، فقط أسافر في عوالم عدة أبحث عنها في كل شخص، فهي روح، والروح يا صديقي لا تفنى ولا تموت، فقط تبقى، وابنتي مازالت هنا، فهي هنا بلا شك.

أتذكر حينما جاءت لتلك الدنيا وأتذكر كأنه البارحة، كأنه لم يمر عليه وقت، كأنني الآن أقف على باب تلك الغرفة أنتظرها، أنتظر زوجتي العزيزة أن تجلب لي جزءا أسميته مني وجُعل ليشبهني ويشبهها.

كأننا نهوى الوجود حينما نجد من يشبهنا، أحببت زوجتي بعد أن وجدتها تشبهني ولا أحد غيرها، فأحببت ابنتي فهي تشبهني وتشبهها، فكانت جنتنا على تلك الأرض وجنتنا انتهت.

وانتهيت أنا.

بالتاكيد انتهيت.

فهي كانت تلك الروح التي تنقص كل عالم لتكمله، وكانت روح عندما تكون أي شيء فتجمله، كانت تلك الروح التي لا تغيب، وكانت روحي حينما غابت، وأصبحت روحا عندما هربت من تلك العوالم الضائعة لتصب بين يدي في ذلك الجسد.

العالم يطلق الأسماء والآباء يطلقون أسماء أبنائهم وأنا أطلقت اسما يُخلد لا يموت فالروح يا صديقي لغز وأنا أردتها ألا تموت.

ولم روح؟

الروح هي انتقال لكيان أنقى من الزيف وأطهر من تلك الأرض، يجول في كل الدنيا، تائها في مجال غير محدود من العوالم المصطنعة، ولكنها واحدة بلا شك.

وتصور معي: فإن اختلاف الأزمنة والعصور يغير فقط الأشكال وتلك العادات وذلك الفكر، ولكنه لا يغير ذلك الأساس الذي صُنع ثابتا أبد الدهر لا يأخذه عالم ولا تتركه دنيا.

الروح هي تنقل لوجودنا الدائم!

نعم وجودنا الدائم.

فنحن لم نفنَ أبدا ولم نترك عالمنا.

فقط انتقلنا من أجساد في عصور إلى أخرى، من أوقات إلى أخرى، ومن عالم إلى آخر، انتقلنا لمزيد من الخبرات، أو لإعادة الزمن.

بالفعل كنا هنا من قبل.

كنا هنا من قبل يا صديقي.

فلم تكن المرة الأولى لتجلس على تلك الطاولة تقرأ تلك الأوراق، لا لم تكن الأولى قط، ولم أكن لأكتب كل هذا من تلك المرة، ولم نكن نلتقي في ذلك العصر، فكنا في عصر آخر في زمن آخر.

أو أن تلك الدنيا بكل ما فيها ما هي إلا خدعة؟

لم نتحرك يوما في تلك السنين، ولم يكبر الطفل، ولم يمت العجوز، فقط نحن من نولد ونكبر لنشيب، ثم تعود بنا الدائرة لنموت ونحيا لنعيش فنشيب ولا تشيب الدنيا.

بالفعل كنا هنا من قبل!

وكانت تلك الدنيا من قبل، وكانت تلك الأوراق كلها وتلك القصص من قبل.

كانت لمياء تقف على ذلك الباب لتقتل نفسها بتلك الشفرة من قبل، وجاءت في مرة أخرى ماتت، ومرة أخرى كُتب لها تكملة، وفي ذات مرة لم تضعف وقتلته فمات، ليحيا في مرة أخرى، ليكون في عصر ما لا يخون، وتنقلب الآية لتخون هي ليقتلها.

لمياء لم توجد مرة واحدة، فكل تلك النساء وكل هؤلاء الرجال ذاتهم الضائعة وروحهم المسافرة.

فكذلك دُنيا، لم تقتل حبيبها في تلك اللعبة وماتت هي، أو أنهم لم يتقابلا في مرات عدة، وهشام تزوج في حياته مرات، وعاد ليقرر أن يقضي معها فيقتل على يديها هنا، فلا يموت.

ولكننا لا نعلم.

نعم يا صديقي.

لا نعلم.

وبالفعل كنا هنا من قبل.

تتذكر تلك الدروس التي امتلأت بها عقولنا قديما؟ تذكرها جيدا فهي كل ما نحتاجه.

فهي تلك الطبيعة المترابطة، وتلك الخيوط بألوانها وتناسقها وتلك الكائنات ذات الخلية الواحدة، تورث تلك المعلومات لخلية أخرى فتموت ليخرج جيل أقوى يقدر على ذلك التحدي، فيموت لتتوارث التجارب والخبرات حتى تفوز وتحيا، هنا نبدأ من جديد فتتكاسل إحدى الخلايا ولا تؤدي بعملها، فتموت، لتأتي حياة أخرى، لتفوز ولا تتواكل، وتتوالى.

فإن أينشتاين ونيوتن وكذلك كان دافينشي، هم فقط بكتيريا نمت في عصر ما ثم ماتت لتعود من جديد في عصر آخر فتنمو ومثل تلك البكتريا التي تستفاد من خبرتها في وقت مضي، فعل نيوتن هذا، فسقطت عليه تفاحة من شجرته المعهودة فلم يطلق لها أي من تلك الأفكار المجنونة في بادئ الأمر، ليعود مرة آخر بحياته البكتيرية لتعود مرة أخرى في السقوط ويبني في كل مرة تلك النظريات المتراكمة.

هم فقط علموا أن الروح لا تُفنى وأننا كنا هنا من قبل فنبقى هنا للأبد، بالفعل نحن كنا هنا من قبل.

فكل تلك الأفكار وتلك الأحلام التي تسابقنا ليست بالصدفة، فرسم دافينشي لم يكن إبداعا من اللحظة إنما تلك اللوحة ما تبقت من ذاكرته

المنسية في رحلته الأخرى، وكذلك أينشتاين فبالتأكيد انفجرت به ذرة ما حين انشطارها وعاد من جديد وبالفعل لم ينتهوا.

فمن الأفضل أن نبحث عن أينشتاين هنا في عصرنا أو نبحث بين الفن عن دافينشي آخر نسي ما كان عليه من قبل.

وإبداعنا المنسي.

كل تلك الأمور لم تخلق صدفة، لم يرسم دافنشي لوحاته من الصدفة، ولم تكتب أجاثا عن تلك الشخصيات صدفة، إنما عايشها من قبل وعاد لتأتي له كأنها إلهامه وفكر أنه لم يأت مثله أحد ولكنه يجهل.

فإن ذلك الفكر وتلك الأفكار التي تأتينا لم تكن أبدا صدفة، لم تكن صدفة، فقط هي ذاكرة منسية لعقولنا من رحلة الروح بين تلك العوالم فتنسى.

ولم هذا كله! أنا فقط أسميتها روح.

ولهذا أسميتها روح، أسميتها روح يا صديقي.

أردت ألا تنتهي ولا تذبل أبدا، أردتها متنقلة مسافرة بين أحضاني لأرجع لها مرة أخرى، أردت أن تعلم أن نهايتي لا تعني أنني انسحبت من الحياة فتركتها ولن أعود.

فأنا حتما سأعود لها.

فنحن حتما عائدون لنا.

الشمس لم تكن ليلا والقمر لم يكن نهارا أبدا، والسكون لم يكن في كل لحظة يزداد حتى إن العالم يصمت ولا يتحدث، لا أسمع أصوات السيارات ولا أسمع صوت الرياح، وكأنني لا أرى حتى القمر المنير منيرا، أو أنه اختفى نوره.

وكأنني كنت أسبح في بحر ما وتأخذني الأمواج فجأة لعمق محيط آخر لا أعلم عنه شيئا، أو أنني لا أحسن الفهم، ماذا يقصد؟ وماذا يريد؟

تركت تلك الأوراق تسبح في أعماق محيطها الأسود ومياهها الهاربة أو أنني أغرق في أعماق نفسه فلا أجدني أو لا أعرفني، ماذا يريد مني بكل تلك الأوراق، ماذا يريد مني بكل بتلك الحكايات.

فما يجعلني عنصرا في إحدى تلك القصص إن كانت قصة لمياء وزوجها، أو قصة هشام ودنيا!؟

يسحبني بذلك الفضول وتلك الألغاز لحقائق تغزو عقلي وتبرحه ضربا، فلا أرى شيئا إلا ذلك العالم الذي يرسمه في كل مرة بين طيات ذلك الورق.

أخذني الوقت وأنا أفكر في كل شيء أقرأ من جديد تلك الأسطر كأنها تنقصها شيء، كأن العالم يرفضها، أو أنه يرفض العالم كله، امسيت أقلب في الأوراق تحت نور القمر، أتذكر تلك الأيام القليلة التي مرت من بداية وجوده الغائب وغيابه الموجود.

أقلب في أوراق كتبها في يوم ما لأقرأها الآن.

وأقلب.

حتى يزداد العرق نهرا.

والسماء سوادا.

وذلك الضوء المنبعث خفت وقل.

وصوت قلبي ما أسمعه فقط.

وعيوني زادت في تحديقها وجحوظها حين أبصرت اسمي، مدونا على تلك الأوراق!

فهل يعقل؟

هل أنا فصل من تلك القصة؟

هل أنا؟

(٨)

البقاء فالجنس.

١٢ / ٩ / ٢٠١٧

كل تلك الأيام التي مرت شيء وما حدث في يومي هذا شيء آخر، لا أعلم ما أصابني، كل شيء أصبح ضمن الأشياء المفقودة، تلك الأشياء التي لا نجدها طيلة سنوات ولا تعود إلا صدفة، فكانت تلك الأيام البداية.

بداية ذلك الصندوق ولغزه الأول ذلك الفيديو بكل ما يحتويه من صدمات لا أعرف مبتغاها، وثانيها تلك الغرفة التي تجلس بها امرأة نطقت اسمها صدفة، تلك الزوجة لمياء وزوجها الباكي على باب غرفتها، أشياء لم أعهدها، وأشياء أخاف منها، وأخاف أكثر من الباقي.

حتى استيقظت ذات يوم، ألتمس التراب بين يدي، والرمل الذي يلاعب فمي ولساني، وذلك السواد من حولي فلا أرى إلا مسافة قدمي

، ملابسي التي أغرقها التراب، نظارتي المكسورة في جانب آخر مني.

هكذا استيقظت من نومي، لا أعلم أين أنا فقط هو الليل والتراب من تحتي وقمر لا ينير، وقفت على قدمي ونفضت عن ملابسي تراب الأرض، أخذت نظارتي بكسر على عدستها اليسري، فخلعتها مرة أخرى أنظف ترابها ولبستها من جديد، بدأت تلك الرؤية تأتي رويدا رويدا، حتى أبصرتها.

في بادئ الأمر لم أكن أرى جيدا ولكن هناك بالفعل شخص يجلس على كرسي أمامي بخطوات، شخص كلما اقتربت أكثر أراه يظهر من الملامح ما خفي، حتى أبصرتها.

أمسكت هاتفي الجوال لأنير به كشافه لأرى ملامح ذلك الجالس، ولكنني وجدت شيئا آخرا، وجدت رسالة لم تفتح وصلت منذ فترة، فتحتها برهبة الفريسة:

"أحيانا يجب ألا نرى الأشخاص، أحيانا لا يجب أن يرونا"

بالتأكيد هناك جزء مفقود من تلك الرسالة، أحسست أن كل الكون يراني وأنا لا أراه، أمسكت هاتفي وفتحت ذلك الكشاف أنير جوانبي، لأجدني في غرفة مازالت في طور التجهيز، فتلك الرمال والحجارة في كل مكان، وهنا بدأت أوجه هاتفي للأمام نحو الجالس.

واقتربت أكثر.

حتى أبصرتها.

أبصرت تلك "دنيا" الفتاة التي كانت في لغزه الأول، في ذلك الفيديو، الفتاة التي قتلت هشام بمسدس عاصي، الفتاو التي كانت في المشفى يعلو صوتها حينما دخلت.

كيف أتت هنا؟

أو السؤال الأكثر شمولا ومنطقية.

من أحضرني هنا؟

اقتربت أكثر لأجدها نائمة لا تفيق وتلك الحبال حولها لتربطها في الكرسي، كل هذا بالأمر الهين، بكل هذا فهي على حافة تلك الشرفة غير المكتملة، فقط هي تجلس مخدرة على حافة شرفة جاهزة للسقوط، ربطت على الكرسي وأنا أمامها أمسك بيدي هاتفي، وعلى تلك الشاشه رسالة، فاقتربت أكثر لأراها معصوبة العيون، فهي وإن استقيظت لا ترى فلن ترى من أنا.

شرعت في فك وثاقها، ولكنني وقفت متسمرا أمام قرار أن أفك عنها عيونها، وهنا أحسست أن الرسالة تعني هذا، ألا أفك عنها عيونها، ولكنني لم أشرع في إزالتها ولم أفعل، ولم أعلم لمَ لم أفعلها.

أنا بكل هذا الذهول أفك عنها وثاقها، لا أتردد في قراري، ولا أفهم ما أصنعه، فقط أبحث في أرجاء المكان عن أي شيء يوصلني به، تركتها بعد أن حررتها من تلك الأحبال وسحبت ذلك الكرسي للأمام بعيدا عن تلك الشرفة، وبحثت في كل مكان عن شيء.

ولكنني لا أعلم ما أبحث عنه.

أقرب كشاف هاتفي على تلك الأرض، وفي المكان الذي وجدت به نفسي ملقى، وجدت تلك الكاميرا بالقرب من الرمال، وبلهفة أمسك بها.

وجدتها تعطي الإشارة بالشحن، ثم فرغت من صبرها فسكنت، لعنت تلك الآلات ونظرت لها لأجدها ما زالت نائمة، ونظرت مرة أخرى إلى تلك الكاميرا، ثم أسرعت للخارج دون تفكير.

أتجنب تلك الأشياء الموضوعة في الطريق من رمال وأشياء للبناء بهاتفي المنير، ثم تأخذني تلك السلالم فلا أرى وجهي لأسفل فقط لأسفل، فتركت ذلك المبنى، فيصدمني الواقع بتلك الأحلام المفاجئة.

فأجد سيارتي أمام المبنى، دون تردد ودون تفكير بكيف؟ ومتى؟ أبحث عن مفاتيح السيارة، بتوتري المعتاد وبخوفي النائم في ذلك الطابق من العمارة ركبت السيارة، وكأنني أسابق الزمن أسرع، أنظر في كل مرة على تلك الكاميرا، سريعا أريد شحنها لأرى ما بها.

وتركت خلفي تلك الفتاة، لا أدري إن كانت ميتة أم ستفيق، لتجد نفسها كما وجدت نفسي، ولكنها لن تجد شخصا آخرا معها فيصيبها الذعر أو لعلها تختفي.

وصلت لبيتي في لمح الأبصار وفي بطؤ السلحفاة، كأنها ساعات ولكنها دقائق، صعدت على تلك الأدراج، كانت الثانية بعد منتصف الليل، بالتأكيد زوجتي نائمة، فلا أريدها غاضبة من تأخري أو قلقة على تعثري وتوتري الملحوظ.

وجدتها نائمة نظرت لها نظرة استغاثة ثم نظرت إلى تلك الكاميرا، وعندها هرولت للداخل أبحث في أدراج الغرفة، وجدتها بين موجات من التقليب، وانتظرت حتى تستجيب الكاميرا وأرى ما تحتويه من سر.

كاد أن يصيبني جنون الانتظار وأنا أجلس على الأرض أنتظرها في غضون العشر دقائق، وعلى ذلك الشاحن، استجابت الكاميرا، وتنفست الصعداء، وضغطت على زر التشغيل بعد أن وجدت ذلك الفيديو الوحيد.

أدقق النظر لأجدها تجلس على ذلك الكرسي، معصوبة العيون مربوطة بحبال عدة على حافة الشرفة تبكي، كانت دنيا في الفيديو للمرة الثانية ولكنها اليوم وحدها، فلا ينقذها حبيبها ولا يشفع لها بكاء.

أسمع صوته مرة أخرى وهو يحدثها ولكن تلك المرة لم يكن عنهما:

"عارف إنك طولتي في اللعبة دي، بس كان لازم تساعديني، كان لازم تشوفي بنفسك الفرق بينك وبينها، الفرق بينك يا دنيا وبين لمياء"

قالها بسهولة ووصلتني بصدمة أخرى، ماذا حدث فكانت لمياء بعد أن حاولت الانتحار في المشفى حينما عثروا على دنيا فكانت هناك في نفس اليوم، ولكن ماذا حدث ليجمع بينهما؟

فاقترب منها أكثر ووضع كرسيا أمامها فظهر ظهره أمام الكاميرا، لا أرى إلا أحد جوانب دنيا وهي جالسة، فتنظر له بخوفها المعهود، ليكمل:

"اللي كانت نايمة على سرير المستشفى (لمياء) ست تانية بس عمرها ما كانت زيك، رغم قوتها وقت الضعف إلا أنها ضعفت ومقتلتش، مقتلتوش يا دنيا، مقتلتش جوزها زي ما انتي قتلتي، هشام".

فكل هذا أعرفه كل المعرفة، فرأيت دنيا وهي تقتل هشام ولكن كانت لتسلم، وعلمت من قبل لمياء فلم تقتل ولكنها كانت لضعفها، فماذا لو كان الاختيار ألا تقتل فهل كانت ستقتل؟

أو لم تضعف لمياء هل كانت ستقتله؟

وما هو ضعف لمياء؟

كل ما أعرفه انها انتحرت أمام عين زوجها بعد أن قصت شعرها وكان الدم شلالا.

ولكنني

لا أعلم؟

و ما أعرفه أنه الشيطان.

فهو كان شيطانهم المتخفي.

أدار الكرسي أسفله ليضعه في مواجهة دنيا ووضع أرجله عليه موضع المفترس، وأكمل وهو يتحرك من عليه بهدوء.

"هي ممكن الست تقتل الراجل ليه؟

أو ممكن تقتل حبيبها ليه؟

هي ممكن تقتل واحد معاها في علاقة؟

يعني أي واحد مش شرط يبقى حبيبها مثلا؟

ممكن!".

أتخيله ينظر لها وهو يمسك بنظارته من حين إلى آخر، فزاد توتره الانطوائي، كأنه مصاب بالتوحد يحدث ما لم يتعود أن يحدثه:

"أيوة.

الست ممكن تقتل عشان حريتها، بس عمرها ما هتقتل حبيبها.

ممكن تقتل عشيقها، والمعنى هنا مش إن درجة الحب زادت، أبدا، المعنى هنا انه مجرد راجل، ذكر يعني، بيلبي احتياجاتها كأنثى.

علاقة".

هنا أمسك رأسه بصعوبة وتنفس نفسا خرج من صدره كأنه جندي حرب أثره في نفسه فيريد التحرر.

"علاقة، أيوة هي الكلمة دي.

الفكرة إننا عايشين في حياة بعض علاقات، انتي وهشام، دنيا البنت الصغيرة اللي الحياة أجبرتها تعيش نص شخصية مدمنة وبتحركها شهوتها وحبها الأصلي لوجود الراجل في حياتها، وإنه مجرد آلة بيطفي شعلة كل يوم بتزيد فيها، شعلة بتزيد وعمرها ما تتطفي، شعلة موجودة علشان نحس بالوجود، نحس بوجود النص اللي بيكملنا، مفتاح القفل الضايع".

وقف عن ذلك الكرسي سريعا ووضع قدمه اليسرى عليه:

"بس هو بيكون مفتاح مميز، وانتي قررتي إنه يبقى أي مفتاح، المهم إننا نحس بالنشوة الكذابة ونعلن للناس إننا مخلوقين للجنس وبس.

هو إيه الفرق بيننا وبين الحيوانات يا دنيا؟"

انتظر تحدثها الصامت ونطقها بأي شيء يدافع عن كونها أنثى ينعتها الرجل بأنها شهوانية لا تريد إلا علاقة، علاقة لتحيي أنثى جميلة، ينعتها بأنها إلهة الجنس في عصرنا، تتغذى على هؤلاء الرجال، بعد أن يسلموا قربانهم وهي أجسادهم، لتحيا تلك جميلة الجميلات.

ولكنها لم تتحدث، لعلني لم ألحظ أن فمها وضع عليه ذلك اللاصق الذي يغلق فمها، فلا تتحدث.

"الفرق.

مفيش فرق.

أيوة.

هو إيه الفرق بينا وبين قرد مثلا أو نمر؟

كلنا بندور على العلاقة اللي تضمن لينا الحياة.. لما كانت الحيوانات بتحس بالكوارث، الهروب بيكون أول حاجة، البقاء بيكون رقم واحد.

أما في أوقات الربيع الهدوء، حتى النباتات بتلجأ للوجود والبقاء بس عن طريق أنسالهم.

دا عمره ما كان عيب، لأنها كانت فطرة اتوجدنا بيها، ازاي نقدر نضمن وجودنا، أو ازاي نضمن حكايتنا إنها تتحكي، فكانت الطريقة الوحيدة المتاحة هي الجنس.

بس هو احنا بنتجوز علشان الوجود من عدمه، ولا لأننا بنحب؟"

هنا مسك رأسه قرابة النصف دقيقة، لم يستطع أن يتحمل فظهر عليه، ليمسك برأسه ويصمت ثم يعود كأن شيئا لم يكن.

"السؤال اللي حيرني، الزوج اللي بيكرس حياته إنه يأمن لابنه مستقبل، بس علشان يكمل في نفس الدايرة ويتجوز، هو كتبله إنه يتجوز علشان يحميه من الشهوة؟ ولا عارف إنه هيحب؟

مش عارف.

ومش عاوز أعرف.

اللي عاوز أعرفه، هو احنا بنتجوز علشان نكفي نفسنا عن الحرام ونكبح شهوتنا ونقضي عليها في علاقة بيتقاس نجاحها من عدمه بعلاقة بتكفي احتياجتنا؟

ولا احنا بنتجوز علشان عاوزين نكمل حياتنا مع الشخص دا؟

هو لما هشام قالك بحبك كان بعد ولا قبل أول ليلة بينكم؟"

وضع ذلك السؤال وتركها لتجيب بإشارة برأسها، بالتأكيد هو لا يريد منها جوابا.

"الفرق بينكم وبين لمياء إنها حبته بجد.. فاهمة قصدي إيه؟ مهو مش معقول واحد كل ليلة بيرجع لمراته بيقولها إنه خانها مع واحدة غيرها، تستحمل كل دا، تفتكري لمياء لو كانت بتحب فيه بس قدرته على الاكتفاء الجنسي، كان هتسمح إنه يرجع كل يوم بخيانة شكل؟

عاوزة رأيي؟ مفتكرش.

الواحدة اللي بتحب علشان علاقة، بتحب الاكتفاء بيها هي بس، مبتحبش شريك، أما لمياء فهي حبت آدم، عشان هو شريكها في حياتها مش شريك سرير، حبت وجوده واعترافه وضعفه اللي بيبان قدامها هي بس، فعرفت إنها المختارة والأم الحنونة.

ويوم لما انتصرت على نفسها وقصت شعرها، ضعفت قدام حبها، انتصارها شبه انتصارك بالظبط.

الحرية والنفس.

هي كانت حريتها إنها تقص شعرها وتعلن قدام مرايتها إجنها قوية وانتصرت، انتي كان انتصارك الحرية، متفرقش كتير.

اللي يفرق بجد بعد الانتصار بتاعكم، وقت المواجهة ج، اللي قررت فيه تضعف وتنتحر، انتي قررتي تواجهي وتقتلي هشام علشان حريتك".

تحرك إلى الوراء خطوات عدة استدار فظهر نصفه في الكاميرا ولكن إضاءة الكاميرا كانت تحجب الرؤية فلم تظهر ملامحه، أخرج من جيبه الظاهر سيجارته وأشعلها بولاعتها المضيئة وأكمل حديثه بعد أن تركها بحركة عاطفية وذلك الدخان يملأ كل الصورة فيغرق الرؤية.

"علشان كدا كان لازم تبقى الكفتين قد بعض، كان لازم يموت".

سمعت تلك الكلمات وزادت في التكرار أكثر وأكثر، فأسمع ضحكاته الساخرة.

"وكان لازم تشوفي اللي حصل بعينك.

آدم كان نقطة سودة في حياة لمياء، وكان ممكن يبقى نقطة سودة في حياة أي واحدة وكنتي هتبقي اللي بتقتليه بإيدك لو كان مكان هشام، هو النقطة السودة في حياة لمياء، اللي ضعفتها لحد ما اتكسرت، هو ينفع نصلح حاجه اتكسرت يا دنيا؟

بس نقدر نعاقب اللي عمل كدا.

نقدر نعاقب آدم.

ممكن نقتله".

****

(٩)

واترك كل هذا وابحث عن ذاتك.

مرت قرابة العشر دقائق وأنا ممسك بالكاميرا لا أصدق ما أراه ولا أتخيل ما حدث، لا أعرف كيف وجدت جسدي هناك ولمَ أنا بين كل تلك القصص.

جسد ملقى على الأرض.

يتصبب العرق منه.

دخان سيجارته مميت، كأنها طائرة تعلن الإقلاع.

عقلي بدأ يؤلمني، أصوات تعلو ولا أقدر.

أسمع صوت آدم يصرخ بعد أن أطلق عليه.

نعم.

أتخيله، ملقى على ذلك السرير في أحضان لمياء وهي تبكي، وتشاهدهم من بعيد دنيا في صمت رهيب، وصدمة أخرى تعلن النهاية، نهاية لخيانة آدم، وبداية نهاية دنيا، ولعلها نهاية لوجع لمياء، ولكل نهاية تلك الصرخة المؤلمة، كانت لمياء تصرخ.

كيف تصل إلى عقلي صرخاتها ودموعها، كأنها لوحة رسمت في لب عقلي، لمياء تجلس على السرير وشخص ما لا تظهر ملامحه ممسكا مسدسه

موجه لقلب آدم وتجلس أمامهم دنيا، كلهم في حالة فزع أمام ضحكاته الساخرة وحكمه الأبدي.

دخلت تلك القصة من منتصفها، قصة لمياء وأدم، وانتهت بالتأكيد بقتله، وانتهت قصة الرجل الذي خان، لتعيش المرأة دون ضعف من حبها الصادق، لأدخل من البداية في قصة أخرى كانت بعنوان هشام ودنيا، لتقتل دنيا عشيقها، لتعيش المرأة دون قيود من علاقة عابرة، وأعيش أنا في حياة رجل يحقق عدالته الظالمة، كأنه خلق للقتل، ولا أعلم ما تبقى لا أعرفه.

لعلها سمعت صوت بكاء روحي، أو أن دخان سيجارتي وصل لها فأزعج منامها، لأجدها واقفة أمامي، أنظر في عيونها، ملجأي الوحيد وملاذي من كل تلك الدنيا، نظرت لها والدمع يأبى أن يهرب من عيوني، فأجدها تلك الحاضنة.

إنها زوجتي سارة، تلك التي تشبهني، كأنني ولدت لأجدها وأجدني بين احضانها، كأنها الأم التي تأخذني من العالم أجمع، تخبرني بأن كل شيء سيصبح على ما يرام، لا، سيصبح كل شيء كأنه لم يحدث، هكذا كانت زوجتي ملجئي الأوحد ومهربي الهادئ، كأنها تأخذني من يدي إلى عالم لا يوجد به كل هذا الحزن، أو كل تلك الألغاز.

تعلم جيدا حياتي.

تعلم كل ما حدث.

ولهذا أحبها.

لم أتخيل يوما وجودي دونها.

فسارة ملاذ غيره لا أريد.

مرت ليال في ملاذي دون أي من تلك الأفكار، أو أنني لا أفكر حتى في عاصي وتكملة لما بدأ، لا أتذكر نهاية آدم أو نهاية هشام، أو أنني أهرب، حتى إنني لا أعرف الهروب.

وكان صباح اليوم الثاني أحاول أن أستجمع قوتي وأن أنسى كل ما مر، لا أريد أن أكون شخصا في تلك القصة أبدا، لا أريد أن ينتهي الحال بي قتيلا على يد امرأة أو من أجل إحداهن.

حدث كل شيء سريعا دون سابق إنذار، دون أن أعي حتى خطورة الموقف، ولعل لغزه الرابع يحمل شيئا آخرا، أنا وبكل قوتي أذهب مرة ثانية للمكان الذي وجدت به.

لذلك المكان الذي ولدت به.

أركب سيارتي سريعا لا أحسب ذلك الوقت الذي يمر، يدفعني إليه حبي للفضول وكشف ما بقى، والانتهاء منه ومن ذلك الكابوس، لعل هي نهاية لكل تلك القصص وكل تلك الشخصيات، دمر ما دمر وبقي ما بقى، ولكنه سينتهي.

كنت نائما بجوار سارة التي كثيرا حمدت ربي على وجودها، كأنني ولدت لأكون لها، وولدت وأنا بين أحضانها، وولدت لأكون هنا بينها، حينها استيقظت ورأسي تؤلمني بالكاد أستطيع أن أفتح عيني، أفتح هاتفي الجوال لأجد تلك الرسالة مرة أخرى، رسالة لم تفتح بعد، رسالة تحمل عنوانها، فكان العنوان (الرابع)، لعله ترك اللغز الثالث بتلك الكاميرا وما تحمله، ولكنه الرابع، ما يفصلني عن آخرهم.

فكانت تلك الرسالة تحمل عنوان لمصحة نفسية، ما أنا في طريقها الآن بسيارتي، ولكنه اليوم ذكر تلك الغرفة، ذكر الغرفة حيث ولدت أنا، ذكر الغرفة التي كنت بها.

يخبرني قلبي ألا أذهب، يخبرني شخص ما استقر في عقلي أن أذهب، فأخر مرة تركت قدمي لتقودني للمشفى سابقا نطقت باسم لمياء، وأنا لم أكن أعرفها، والان أنا في طريقي إلى مشفى آخر، في طريقي إلى مستشفى

الأمراض النفسية، للغز رابع، يقربني من آخر لغز يقودني له، أو لكي أعرف ما أنا به الآن.

لم يكن بالطريق الأطول الذي أقطعه، ولكنه بالدقات الأكثر التي تنشق من ضلوعي، خوفي لا يختفي ولا يساويه خوف، كأنني في سباق وفي رهاني على الفوز وأجري دون توقف، كان قلبي كدقات ساعة لا تتوقف، كساعة الحروب.

ولكنني أرى نفسي وخوفي وفي قرارة عقلي أسألها:

مم أخاف؟

ممن ينتفض قلبي؟

اهو خوفي من الحقيقة؟

أم خوفي من نفسي؟

وصلت لتلك الغرفة، أتذكر رائحتها وجوها الهادئ كأن كل شيء حدث منذ قليل، كأنني لازلت أرتب أغراضي لأخرج من هنا، كأن شيئا لم يتغير، فتلك الستارة التي تهرول منها الرياح ما زالت ساكنة ثابتة، وذلك الكرسي بطاولته أتذكر أنني كثيرا ما جلست عليه أقرأ وأكون في عالم لشخص ما.

ولكنني اليوم لست أمس، الآن أنا بالخارج عن هنا، واليوم بها شخص آخر غيري، وغير ما كانت بالأمس، اليوم تجلس تلك المرأة على سرير أشبه بالبحر من كثرة الدموع، تجلس ووجهها لا أراه، تعطي لنا ظهرها الذي أصابه الشيب وتعرج حتى كاد أن يسقط كاهلها حزنا.

وجدتني أقترب منها لأسمع حديثها الهامي وبكاءها الصامت، ممسكة بيدها صورة لطفلة ضاحكة، أغرقتها الدموع حتى أنها تخللت وتركت إطارها لتبتلى بالبلل.

أنا اللي قتلتها.

أنا اللي قتلتك.

أنا اللي قتلتك.

بكاء ثم تلك الكلمات الثلاث، بكاء على جريمة قتل بريئة، وسريعا كدت أضع يدي عليها فأخفف عنها حزنها وأمسح عن خديها دموعها، حتى جاءت لمسامعي تلك الكلمة، حتى وصل لأذني اسمها، فتوقف القلب رعبا، وتباطأت أنفاسي، فلا أستطيع أن أتحرك أو لعلي لا أستطيع أن أتنفس.

أنا السبب يا روح.

تزامنت مع وقوع عيني على صورتها، وكل تلك الصور المتتالية في مخيلتي، من تلك؟

ومن أنا؟

لم أصبح الجو باردا؟

لم أرى نفسي أجلس مكان تلك المرأة؟

كيف لها أن تنظر لي ووجها الحزين، فأجد نفسي؟

أنا بكل ما بي؟

بعدها ببعض دقايق أفتح عيني على وجه ذلك الطبيب الذي جلس أمامي مباشرة، كان يفحصني بعناية بعد سقوطي على الأرض لعل هذا هو السبب، لعل هذا هو سبب وجودي على تلك الأريكة أمام طبيب من أطباء المشفى، وهو يعرفني.

- أخبارك إيه يا رفيق؟

وضع ذلك السؤال وهو يحول مساره إلى المكتب أمام تلك الأريكة حيث أنا، وأجبت بتألمي:

- بخير يا دكتور، هو إيه اللي حصل؟

وأجابني بالصدمة:

- انت اللي هتحكيلي إيه اللي فيك، الممرضة شافتك داخل الأوضة بتاعتك زمان، وشوية لقتك واقع على الأرض!

فوجدتني بسرعة، أجلس على أريكته وبعدم راحة بالسؤال:

- هي كانت فاضية؟

ليجيب عليا بصدمة ازداد فيها تعرقي:

- هي طول عمرها فاضية.

وبعد أن أيقن أنني لن أتحدث مرة أخرى، أو لعله استشعر قلقي وتوتري:

- سارة يا رفيق، سارة قلقانة عليك، حصل حاجة عاوز تتكلم فيها؟

وأنا أشير برأسي ألا شيء قد حدث، ولكن دقات قلبي كدت أسمعها وهي ترفض الكذب وتريد الإفصاح بكل ما يحدث، أردت أن أصرخ لأجيب عليه بأن هناك شخصا ما في تلك الغرفة، بالتأكيد هناك شخص ما!

- طيب تمام، وطالما انت جيت، ممكن نعمل شوية فحوصات علشان نطمن مش أكتر؟

علمت من طريقته أنني مذنب أو كأنني سأعود هنا ثانية فأردت أن أهرب سريعا من كل هذا، وقفت واتجهت أمامه لذلك الكرسي بالمقابل منه تماما.

- تمام مفيش مشكلة.

- هنبدأ بشوية أسئلة بسيطة وتقدر تروح ترتاح، ونكمل وقت تاني.

حمدت ربي أن هذا الكابوس سينتهي، أو أنه حاول تهدئتي لأتحدث.

- اسمك ثلاثي؟

- رفيق مصطفي عبد الحميد

- السن؟

وقفت قليلا لعلني أتذكر بالتحديد كم أصابني من العمر سنوات.

- ٣٦ سنة

- متزوج؟

كأن نسيمها هون علي تلك الأزمة، عندها نظرت إلى خاتمها في يدي، وأخبرته مبتسم:

- متزوج.

وبحرص المفترس لاصطياد فريسته سألني من جديد:

- عندك أولاد؟

استوقفتني لدقيقة ليس السؤال هو السبب إنما نظرات عيونه، كأنه ينتظر خبرا ما، ولكنني ورغم كل شيء:

- لا لسه ربنا مأمرش.

أخذ الحوار اتجاها آخرا، غير تلك الأسئلة التي يبحث بها عن شيء، وبعد عشر دقائق خرجت من الغرفة وأنا ألقي بعيوني على باب الغرفة مرة أخيرة، فلا أجد أحدا يسكنها.

لا أجد تلك المرأة الباكية ولا أجدها تحمل صورة تشبه تلك الطفلة التي أراها كل ليلة في حلمي وهي تصدم بسيارة مسرعة، لأسمع مرة أخرى اسمها روح بذلك الوجع في رأسي، بالتأكيد كان هذا الصوت الذي أسمعه مرارا وينتهي به الحلم صوت امرأة تصرخ وتنادي بفزع باسمها روح.

ولكن أجدني أخرج من المشفى، يأخذوني جنون عقلي فعلى حافة أن أصاب بالجنون، كيف لكل هذا أن يصبح مجرد هراء؟

لا يوجد. مجرد شيء لم يكن موجودا يوما.

ركبت سيارتي، وهناك مسكت رأسي فهي تؤلمني كأن شخص ما انقض علي ولكمني عدة لكمات بها أو أن عقلي يخرج من ذلك المحيط الضيق ليتحرر، أصدم كل ما في السيارة بيدي في غضب صارخ، ويزداد الألم حده ويزداد جنونا مرات، حتى وجدت ذلك الورق يقع من السيارة ليقع تحت قدمي، وفي قلقي وغضبي وخوفي من الآتي ألتقطها.

أوراق فارغة، كانت أغلبها أوراق فارغة للطباعة، فقط بيضاء كبياض الحليب نقية لم يلوثها بحبره المزعج ولا بقصصه الفارغة، يسقط منها ظرف أبيض فتركت كل تلك الأوراق تسقط والتمسته، فيثقله شيء يحويه، وكتب على ظهره بحبر أسود كليل في نهاية الشهر "الخامس"، سريعا تركت نفسي وتركتني يدي وشرعت في فتح الظرف، فهناك وجدني مفتاح أكلته الصدأ وورقة لُصقت عليه بلاصق شفاف، كُتب عليها بقلم جاف أزرق يميل لسواد عنوان شقة.

أخر تلك الألغاز.

مفتاح للمعرفة.

مفتاح لكل شيء.

فتركني في عالم أهوي به الفضول.

وتركني في تحد لا يعلم السكون.

وأوشكت النهاية.

(١٠)

فأنت لم تملك ذلك الجسد يوما ما.

١٥ / ٩ / ٢٠١٧

ممسكا بيدي أوراق كُتب عليه اسمي، فكتب في منتصف ورقة بيضاء بحبر أسود بخط عريض "رفيق"، أصابني الخوف أضعاف ما كنت عليه في كل مرة، أقلب بعيوني في الغرفة لعلني أرى أيا من تلك المرايا أرى بها وجهي، هل أنا موجود؟

هل أنا مجرد قصة كُتبت على أوراق بيضاء بحبر أسود.

أما أنا طيف لا وجود له؟

أو لعلني روح، تجول في عالم ضائع؟

أدرت تلك الأوراق وتركت أول ورقة تهرول لأسفل بكلاسيكية السقوط الحر، وأنا أسمع صدى عزف نوتة موسيقية بدقات القلب وغليان الدم وتخبطه في جدار الأوعية فيترفع ضغطي، وبدأت في القراءة.

***

رفيق كيف حالك؟ أستطيع أن أشعر بوجودك ووجود قلقك وعدم فهمك لكل ما يجري ولكن لا تقلق، نعم أنا من صنع لك القلق فتخاف يخبرك بكل ثقة ألا تقلق.

ودعنا نبدأ لنكشف من أنت؟؟

دعنا نترك سؤالا هنا سنحتاجه فيما بعد، فاحتفظ به.

هل تصورت يوما أن يكون لك رفيق؟

ليس رفيق درب ولا صديق عمل، إنما رفيق روح.

هل تخيلت يوما يا رفيق، أننا نملك الآخر؟

لا تفكر كثيرا، فأنت لم تكن تهتم، أنت كفلاح وجد تلك البركة تضخ الماء كل يوم ليرعى زرعته فتكبر، لم يكترث يوما لها، ولم يخطر في عقله يوما، ماذا إن اختفت؟

لا تفكر كثيرا أيضا.

فأنا أخرق، لا تلومني على شيء.

حتى يا صديقي لا تلومني على طريقتي في أن أريك نفسي وأن تنتهي من تلك القصص التي وجدت بها نفسك، لم يكن بمقدوري أن نتقابل أن يرى كلانا الآخر، ولكننا نتلاقى كل يوم أو كل ليلة.

أو لعلك تتوهم.

حقا أتذكر ذلك اليوم كأنه أمس، أنا كنت في سجني الملعون داخلك، ذلك السجن الذي صنعوه لك من أجلي، أراقب من داخلك عندما ظهرت عليك أعراض جانبية، فكانت الأولى، حينما فرغت من كونك أبلها لا تفهم، فأردتني أن أتحرر وأخرجتني.

فهناك دائما الين واليانغ، الخير والشر، فكنت أنت الخير بكل سذاجته، فولدت لتخفي ما فيك من شر أو كره فكان أنا ذلك الشر حينما زارني الموت بفراق فسلمني بيده دون رحمة لعذاب الاشتياق، فأُخذت مني روحي، وماتت روح.

حينها تركت العالم أجمع، حاولت أن تتسلق روحي، وتكون معها لتسافر في عوالمنا الزائفة، ولكنني بقيت، ولم أطق صبرا على الانتظار حتى تأتي من جديد، فكنت كجسد يؤلمه الفراق ويلعن الحياة ولا يعيش، فأصبحت خارجيا في سجن وضعت به قهرا حتى أهدأ، فكان اللغز الرابع، مستشفى أمراض عقلية ونفسية، ذهبت لها لترجع أنت، قتلني الانتظار ومات اسمي هناك، لتظهر أنت دون تفكير فيما كان يسكن هذا الجسد.

لقد ولدت يا صديقي لتغطي على وجودي.

لتفنى وتحفر في عقلك قبرا وتدفني فلا تراني.

ولكنني عدت.

وأصبحنا في جسد واحد فقط نتبادل الأدوار، ولا تشعر بوجودي، كأنها نومة في ليلة مظلمة، فقط قليل من الصداع المؤلم، والأفكار الجنونية كيوم المشفى حين نطقت باسم لمياء، فكنت أنا.

***

ماذا يحدث؟

ماذا إن كنا في جسد واحد؟

ماذا إن لم يكن موجودا أبدا، أو أنا؟

ازداد صداع رأسي، وانتفضت من على ذلك الكرسي أجول في الغرفة أنظر إلى تلك الصور المعلقة وإلة القمر خارج الغرفة، هناك في عقلي صور متتالية تأتي وتعود إلى منفاها ثانية، ولا أعرف غير أنني لا أعرف.

حينها نظرت بتمعن في ملامح الصغيرة وراودتني تلك الصور مرة آخر ولكنها تستمر، فأسمع صوت سيارة الإسعاف آتية وذلك البكاء فأرى الدماء وهي تغطي يداي لأبعدها من ممر نظري فأجدها على الأرض على ذلك الطريق، أغرقت الدماء جسدها الصغير، فأرى زوجتي سارة تجلس أمامي تمسك بها، وأنا بصدمة المقتول أنظر دون حركة أو رد فعل، فقط أمسك دماءها وأنظر للمشهد ساكنا لا أهتز، يزداد صراخ زوجتي سارة

ويزداد الطريق ازدحام وسيارة الإسعاف تقترب، كل هذا وأنا على الأرض أمامها أنتظر.

لأفيق من هذا الحلم أجدني مازلت أقف في تلك الغرفة ممسكا في يدي صورة روح.

فكانت روح ابنتي أنا.

فأنا عاصي.

وروح ابنتي.

ولم تمت زوجتي.

ولم أكن يوما "رفيق".

قبل خمسة شهور من الآن كنت أجلس في غرفة مضيئة بنور يحرق أرجاء الغرفة كلها، لا ذكريات ولا أي من تلك الآلام، أنام لأفيق مرة أخرى أنسى ما كنت عليه، أتذكر تلك الأيام وأتذكر جسدي الملقى على حافة سرير وضع عليه فراش أبيض وسرير يصدر صوت صافرة كلما تقلبت هنا أو جئت هناك، أتذكر أنني كنت أبكي كثيرا كطفل خسر لعبته ولكنه خسرها للأبد، أستيقظ فأجد زوجتي سارة بين الحين والحين جالسة

بالجوار، حزينة مستيقظة طوال الوقت وأنا بدوري نائم لا أفيق، أتذكر صراخي كل يوم وكل ليلة بل كل دقيقة، سرعان ما هدأت واتخذت نفسا يوحي بالخلاص، لم أتذكر لم كنت أصرخ، ولم أتذكر لم أنا هنا، بل أنا مريض؟؟ وبأي مرض لا أعلم، أتذكر أسئلتهم السخيفة عن رجل طويل القامة ذو لحية كثيفة وصوت أجش يسألني مرارا نفس تلك الأسئلة، من أنت؟ فأجيب عليه باسمي رفيق، وهل أنت متزوج؟ لا أجد غير أنني أقول نعم، هل لديك أطفال، فأجيب لا، أجيب لا، ولكنني لم أكن أعلم، لم أكن أعلم أن بداخلي شيئا قد مات، ماتت روحي وسافرت روح إلى عالم آخر، لا أعلم ما كنت عليه، لا أتذكر روح ولا أتذكر أنني مسكت بين يدي يوما طفلة ويوما آخر ماتت، لا أتذكر شيئا كأنني ولدت من جديد.

وقع جسدي مهرولا على الأرض ممسكا بقبضة يدي أوراقه، كأنني أرى نفسي من جديد أو أنني أتذكر ما كنت عليه.

******

أنا من وضع خطة اللعب لدنيا لتقتل هشام بجسد نتشاركه معا.

أنت من كنت في المستشفى وقتلنا آدم بتلك اليد التي نتشاركها معا.

كنا خيرا وشرا متكاملا في جسد واحد. كنت أنت الصخرة الهادئة في بحر أمواجه كثور هائج، وكنت أنا المكترث لكل شيء، فوجدت لأسجن وتكون أنت بهدوئك المطيع سجاني، وكنت أنت سجاني واللامبالي.

دعنا نجيب على سؤالنا الذي تركناه في بادئ الأمر، هل نملك الآخر؟

هل يملك جسد روحان ليعيش بهما على فترات، لكل منا التحكم والفعل، لكل منا الحق الكامل في العيش، أم إنه انفصام؟

فأنا كنت هنا وحدي، حتى جاء الموت فظهرت أنت لتحيا ولم يداو جراحي، فقط صُنعت لتشاركني جسدي، بعدما ذهبت "روح" وتركت جسدها يهرول في فضاء بعيد. ذهب الجسد سنوات ليتعافى، فخرجت أنت به، قالوا حينها إنك لا تتذكر إن كانت لك ابنة سابقة أم لا، وبالفعل حدث فعشت أنت دون حزن فلم تكن لك ابنة في عقلك ولا ذكريات، صدمة الحادث تركت فقط حادثا آخرا وشخصا آخرا في سجن عقلك، فصدمة بعدها أدركت أنك لن تتذكر.

حتى كُتب لي أن أعود مرة أخرى، وهنا لزم الأمر أن ينتهي، أن تعود مجرد روح هاربة ومفقودة، أن تخرج من ذلك الجسد وتتركني بكل هذا الحزن وكل هذا الفراق.

أن تعلم أنك لم تكن يوما هنا.

فأنت لم تملك ذلك الجسد يوما ما.

ولم تكن هنا.

أنت فقط لغز آخر.

كلمات.

فقط كلمات.

كتبتُها لتعيش بين طيات الورق.

فأنت لم تكن موجود يوما.

***

انتهت تلك الأوراق وابيضت من جديد، وزادت الرياح لتطير ويختفي الحبر الأسود ولا يوجد من يلتقطها من على الأرض أو يمنعها من أن تهوي، وفرغت الغرفة لتعود لها، لم يكن بها شخص ما، فقط أوراق بيضاء وتلك الصور المعلقة، وتلك الرياح في حربها مع الأوراق وأصوات الرياح كأنه فحيح أفعى.

فإنني رفيق روح.

لم أكن يوما هنا.

فقط كتبت بيدي، لأقرأها من جديد.

وهكذا كانت الدنيا.

فإن الروح لا تفنى، فقط نأتي مرة أخرى بجهالة الماضي.

فلا نتذكر.

فقد كنا هنا من قبل يا صديقي.

(١١)

هناك حلقات مكتملة الدوران.

ومجهولة المعرفة.

١٥ / ٩ / ٢٠١٧

أمسك في يدي ظرفا به مفتاح صدئ كأنه مر في عوالم عدة ليستقر بين يدي ورسالة منه بعنوان شقة، وكتب على ظهر الظرف "الخامس"، أجلس في سيارتي يأخذني التفكير أو لعلني فرح بالفوز القادم، سينتهي الكابوس، وتنتهي ألغازه وتعقداته التي مرت، فقط على بعد بضع دقائق ينتهي كل شيء.

نظرت إلى ساعتي فإنها الرابعة والنصف في يوم من تلك الأيام التي تشتد به البرودة ليلا، فاليوم كان ٩/١٥، نظرة سريعة لكل ما يحدث حولي، ونظرة أخرى إلى تلك المستشفى ثم إلى وجهي في مرآة السيارة، لعلني سأحتاج لسلاحي، فأخذته ألقمه برصاص تلمع به أسناني، وتركت كل ما مر ورائي وذهبت حيث النهاية.

وصلت أمام ذلك المبني، وصعدت أدراج البداية، كدت أن أسأله ذلك البواب عن وجهتي ولكنه سبقني، رجل يحمل في يده لفافة من الكرتون ويسأله على ذلك العنوان ليجيبه ويخبره أن المصعد معطل، وأخذت تلك الأدراج وقلبي يسرع ودقاته كذلك.

أحمل جسدي الممتلئ وأصعد الأراج فيتصبب العرق مني كأنه شلال مياه، لأجد بجواري ذلك المصعد لأعلم بأن ذلك البواب يكذب، فتثير دقات قلبي، ومسام جسدي، حتى وصلت لمقصدي.

باب خشبي كُتب بجانب منه على لوح من الرخام اسمه، وأخرج من جيبي الخلفي ورقة أصابها العرق فغرقت مطرا، لتظهر مرة أخرى كلمة "الخامس" فأمسك بيدي ذلك المفتاح وشرعت في الاقتراب حتى أصل وأفتح ذلك الباب، حتى وجدت ذلك الرجل بلفافة الكرتون يضغط على الجرس ولا يراني أمامه، ويفتح الباب، إذا بعاصي أمامي مباشرة، ويأخذ لفافة الكرتون ويشرع في غلق الباب.

ولكنني بالداخل، لم يرني أحد كأنني لست هنا.

وجدت كل شيء في طبيعته الهادئة، حتى ذلك البيانو الذي عزفت عليه ابنته في يوم ما، ابنته التي لم تأت بعد. وأنظر لأجده يجلس على ذلك الكرسي الذي كنت يوما أجلس عليه أقرأ ورقه الأبيض وبحبره الأسود.

هناك زوجته تحدثه.

ممسكة لخصرها المنتفخ.

وحملها المشرف على الانتهاء.

علمت أنني لم أكن إلا روح فقط أتت هنا من قبل في يوم ما.

علمت أنني مستقبل لم يأت بعد.

وماض لم ينته بعد.

هناك حلقات مكتملة الدوران.

ومجهولة المعرفة.

حينها، أردت أن أصرخ ليسمعني.

فأخبره أنني هنا.

أنني ماض سيكونه قريبًا.

أردت أن أخبره ألا يناديها "روح".

تمت بحمد الله.

جميع حقوق النشر محفوظة. ولا يحق لأي شخص
أو مؤسسه أو جهة إعاده إصدار هذا الكتاب. أو جزء منه .
أو نقله بأي شكل من الأشكال او تدواله الكترونيا نسخا
أو تخزينا دون إذن خطي من الدار